مصر فى وجدان شعراء العصر الأيوبى

الدكتورة رقية إبراهيم أحمد
كلية الدراسات الاسلامية والعربية
فرع البنات ــ جامعة الأزهر

الطبعـة الأولى

١٤١٤ هـ ــ ١٩٩٣ م

مصر في وجدان شعراء العصر الأيوبي

الدكتورة / رقية إبراهيم أحمد
كلية الدراسات الاسلامية والعربية
فرع البنات ـ جامعة الأزهر

المركز المصري للكتاب
طباعة * نشر * توزيع
٧ ش الامير - نهاية حسن الصبان - مدكور - فيصل
ت : ٨٦٩٢٣٣

الطبعة الأولى

١٤١٤ هـ ـ ١٩٩٣ م

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾

اهـــــداء

الى زوجى . . .

رفيــق الدرب والطموح .. وشريك الحيــاة ..

تقــديرا ووفــاء . ورمزا لمودة ورحمــة جعلها الله تعالى بيننــا آيــة من آياته .

مقدمة

مما لا شك فيه أن لكل بيئة ما يميزها ، وما تتضح به معالمها وشخصيتها ، ولكل بيئة أيضا من يسخر لالقاء الضوء على ما تتميز به ، وبيئة مصر من أهم البيئات التى نلمس فيها السمات والملامح التى تعبر عنها وعن شخصيتها ، وفى العصر الأيوبى حباها الله عز وجل بطائفة من الشعراء استطاعوا بشاعريتهم أن ينفذوا الى أعماقها وجعلوا شعرهم مرآة صادقة انعكست عليها صورة البيئة والمجتمع المصرى بأحداثه السياسية وملامحه الاجتماعية ومشاهده الطبيعية ، واستطاعوا أن يضعوا بين أيدينا رؤيتهم لما بدت عليه مصر فى عيونهم ووجدانهم حتى أصبح من أراد أن يلم بأحداث مصر أو صور مجتمعها عليه — الى جانب المصادر التاريخية والعلمية — أن يتجه الى تراث الأدباء فى تلك الفترة فهو مصدر مواكب لمصادر المعرفة الأخرى .

ولقد تتابعت الأحداث فى مصر الأيوبية وتعددت ملامحها الاجتماعية والطبيعية ، واشتد طرقها على وجدان الشعراء ، فحركت هذا الوجدان بأفانين شتى من ألوان الشعر ، كان أوضحها فن الوصف ذلك الفن الذى يعد أشد الفنون تأثرا بالبيئة ، وربما كان أول استجابة تعبيرية للأديب تنعكس فيها تأثراته وانفعالاته بهذه البيئة وما تحويه من مشاهد طبيعية واجتماعية ، وما يجرى فيها من أحداث .

وفى هذا البحث ألقى الضوء على ما جاء به شعراء هذا العصر من نتاج فى شعر الوصف ، صوروا فيه ما رأته عيونهم ، وما انفعل به وجدانهم فى مصر .

والله ولى التوفيق ،،،

الفصل الأول

البيئة العامة لمصر
في العصر الأيوبى

الشعر دائما صورة للبيئة أو المجتمع الذى ينمـو فيـه ، وما الشعراء الا لسان هذا المجتمع الذى يعبر بما هو كائن فيه ، وهم نبضه الذى يقاس به ، وتعرف به ملامحه وظواهره ، والبيئة أو المجتمـع لا تدرك حقيقته الا بمعرفة كل جوانبه من الناحية السياسية والاجتماعية والفكرية ، وهذا ما نريد تناوله فى البيئة المصرية فى عصر الأيوبيين كى نستطيع أن نعرف ماذا أمكن للشعراء تصوير ووصف هذا المجتمع •

أولا : الناحية السياسية :

حين نريد الحديث عن الحيـاة السياسـية فى مصر فى العصر الأيوبى سنجد أن ذلك لا يتأتى الا اذا ألقينا الضوء على جوانب أربعة :

أولهـا : انهيار الدولة الفاطمية •

ثانيهـا : قيام الدولة الأيوبية •

ثالثهـا : الصراعات والمعارك الداخلية :

رابعهـا : الصراع مع الفرنج وغزوهم لمصر •

أولا : انهيار الدولة الفاطمية :

كانت بداية الحكم الفاطمى فى مصر منذ فتحها جوهر الصـقلى سنة ٣٥٨ هـ ، ويعد المعز لدين الله مؤسس الدولة الفاطمية فيها حين

انتقل اليها سنة ٣٦٢ هـ وانتسبت اليـه عاصمة مصر فكانت القاهرة المعزية (١) . وتوالى الحكام حتى ملكها آخر خلفائها أبو محمد عبد الله العاضد بالله سنة ٥٥٥ هـ ، وكان طفلا صغيرا فقام بأمر دولته الأمراء والوزراء (٢) وقد دب بينهم الخلاف والصراع حتى خرجت البلاد من أيديهم (٣) . وكان أقوى صراع ذلك الذى دار بين أمير الجيوش شاور ابن مجير السعدى وبين ضرغام الذى نازعه فى الوزارة واستولى عليها سنة ٥٥٩ هـ . وتمكن ضرغام من الوزارة لكنه اتجه الى قتل كثير من الأمراء المصريين لتخلو له البلاد ، فاستعان منافسة شاور بنور الدين الأتابكى حاكم الشام ليعيده الى الوزارة ووعده بتمليكه مصر اذ قال له . (أكون نائبك بمصر وأقبل ما تعين لى من الضياع والباقى لك) . واستجاب له نور الدين حيث أرسل أحد أمرائه وهو أسـد الـدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين ، وأعاناه على خصمه وتحقق ما يصبو اليه شاور فأعيد الى الوزارة بعد ان قتل ضرغام (٤) .

ولكن الوزير الفاطمى شاور يتنكر لمن يمد له يد المساعدة ويطالب شيركوه بالعودة الى الشام وفى سبيل مواجهتهم يستعين بالافرنج بالشام وأوضح لهم ان نور الدين ان ملك مصر فما يطيب لهم معه مقام فبادروا اليه (٥) .

وهكذا فتح الباب على يد الوزير الفاطمى لدخول أعداء الدين الى مصر ، واستعد نور الدين لمواجهتهم فقد أحس أهمية مصر فهى الدرع الواقى له . وأرسل أيضا أسد الدين ومعه صلاح الدين اللذين واجها

---

(١) وفيات الأعيان : جـ ١ ص ٣٠١ .
(٢) الفخرى : فى الآداب السلطانية : ص ٢٦٣ .
(٣) الكامل : جـ ٩ ص ٨١ .
(٤) المرجع السابق : جـ ٩ ص ٨٥ .
(٥) مفرج الكروب : جـ ١ ص ١٣٩ .

عددا كبيرا من الفرنج حتى أن البعض منهم أحجم عن المعركة ولكن شرف الدين برغش ينادى فى المسلمين قائلا : (من يخاف القتال والأسر فلا يخدم الملوك ، بل يكون فى بينه مع امرأته ، والله لئن عدنا الى نور الدين من غير غلبة ولا بلاء نعذر فيه ليأخذن ما لنا وليعود علينا بجميع ما أخذناه ويقال : أتأخذون أموال المسلمين وتفرون من عدوهم وتسلمون مثل مصر الى الكفار ؟ والحق بيده [٦] . وأثار قوله الحماس فى جند المسلمين فانتصروا على الفرنج وأعوان شاور من المصريين ويتكرر مثل هذا الصراع أكثر من مرة فى سنة ٥٦٢ هـ وفى سنة ٥٦٤هـ وينتقل ما بين القاهرة ومصر والاسكندرية ، وتسوء أحوال البلاد ، حتى أن الفرنج فى سنة ٥٦٤ هـ استولوا على مصر واذلوا أهلها وأمام هذا لم يجد شاور بدا من ان يحرق مصر وأمر أهلها بالانتقال الى القاهرة ، وعم الدمار البلاد . وكان هذا كله يدور والخليفة الفاطمى العاضد بالله عاجز عن السيطرة على البلاد فيرسل بنفسه الى نور الدين يطلب نجدته ويصف له ضعف المسلمين ، وزاد على ذلك ان أرسل فى كتبه شعور النساء ، وقال : (هذه شعور نساء قصرى يستغثن بك لتنقذهن من الفرنج) [٧] .

وهنا كان لابد من موقف حازم من الخليفة الفاطمى مع وزيره شاور ، فحين استجاب نور الدين لنداء الخليفة وارسل القائد أسد الدين وصلاح الدين الى القاهرة ، خلع خلعة الوزارة على أسد الدين ولقبه بالمنصور أمير الجيوش وحاول شاور أن يقبض على أسد الدين وأمرائه لولا أن ابنه الكامل ينهاه عن ذلك فيقول له أبوه : (والله لئن لم نفعل هذا لنقتلن جميعا ، ويجيبه ابنه : صدقت ولئن نقتل ونحن مسلمون والبلاد اسلامية خير من أن نقتل وقد ملكها الفرنج)[٨] .

---

(٦) الكامل : جـ ٩ ص ٩٥ .

(٧) الكامل : جـ ٩ ص ٩٩ .

(٨) المرجع السابق : ص ١٠١ ، والنجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٣٥١ .

وانتهى الأمر بقتل شاور وارسل برأسه الى العاضد الذى بعث منشورا بالوزارة لأسد الدين كتبه القاضى الفاضل وفيه :

(هذا عهد لم يعهد الى وزير بمثله فتقلد ما رآك الله أهلا بحمله ، وخذ كتاب أمير المؤمنين بقوة ، واسحب ذيل الافتخار بخدمتك بيت النبوة) [٩] . ولكن القدر لم يمهل أسد الدين فقد مات بعد شهرين من توليه الوزارة ، ويقول ابن الأثير : (وهكذا حين ثبتت قدمه فى مصر وظن أنه لم يبق له منازع أتاه أجله فتوفى سنة ٥٦٤ هـ [١٠] وولى الوزارة بعده صلاح الدين ولقب بالملك الناصر ، وجاءه منشور فيه : (الجهاد وأنت رضيع حده ، وتنشئة مجده ، فشمر له عن ساق من القنا ، وخض فيه بحرا من الظبا حتى يأتى الله بالفتح الذى يرجو أمير المؤمنين ان يكون مذخورا لأيامك ومشهودا لك يوم مقامك) [١١] وجاء فى طرة هذا المنشور بالخط العاضدى :

(هذا عهد أمير المؤمنين اليك وحجته عند الله سبحانه عليك فأوف بعهدك ويمينك وخذ كتاب أمير المؤمنين بيمينك ولمن مضى يجدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن أسوة ، ولمن تبقى بثقته بنا أعظم سلوة) [١٢] .

وتولى بذلك صلاح الدين الوزارة فى الحكم الفاطمى ، وفى ذلك يقول معبرا عن غبطته بأن قد تحقق له حكم الأمور فى مصر :

(حين صحبت عمى فى مسيرته الى مصر برغبته وأمر نور الدين

---

(٩) النجوم الزاهرة : جـ ٥ ص ٣٥٣ .
(١٠) الكامل : جـ ٩ ص ١٠١ .
(١١) الروضتين : جـ ١ ص ٣٩٨ .
(١٢) المرجع السابق : ص ٤٠٩ ، قال العماد : هذا آخر منشور طويت به تلك الدولة وختمت وتبددت عقودها وما انتظمت .

ذهبت مكرها فكأنما أساق الى الموت ، ثم توفى فملكنى الله • ما لا كنت أطمع فى بعضه [١٣] •

ثانيا : قيام الدولة الأيوبية فى مصر :

حين ولى صلاح الدين الوزارة ظلت الخطبة بأسم العاضد ولكن لم يكن له الا مجرد الاسم فقط ، ونمت فى نفس صلاح الدين الرغبة فى القضاء على الخلافة الفاطمية خاصة حين وجد مناهضة لهـا من المصريين لما سيطرت به عليهم من عقيدتها ، وأنها فتحت الباب عـلى مصراعيه لدخول اعداء البلاد ، فما ان دخلت سنة ٥٦٧هـ حتى استفتحها صلاح الدين باقامة الخطبة فى الجمعة الأولى من شهر محـرم لبنى العباس فى مصر ، وفى الجمعة الثانية خطبت لهم بالقاهرة وتـوفى العاضد يوم عاشوراء وانقضت تلك الدولة فانتهى مـادام لهـا من العصر [١٤] • وعادت مصر الى الخلافة العباسية ووردت البشـائر للخليفة المستضىء فى بغداد باقامة الخطبة له فى مصر • وهنأه الشعراء وأرسل تقليد السلطنة الى صلاح الدين بالتفويض والتحكيـم [١٥] ، وصفا الجو لصلاح الدين وسمى السلطان وصار يخطب له وباسمه على منابر مصر بعد الخليفة العباس والملك العادل نور الدين محمود ، وكان ذلك اعلانا واضحا بقيام الدولة الأيوبية فى مصر ابتداء من سنة٥٦٧هـ•

ولقد ظلت مصر تحت حكم الأيوبيين حتى سنة ٦٤٨ هـ وملكها منهم حكام وأمراء كان لكل منهم شأن فى هذه الدولة ، فكان أولهم السلطان الملك الناصر صلاح الدين وكان محاربا شجاعا كسر شوكة الصليبيين فى الشام ، وملك الحكم فى مصر والشام بعد موت نور الدين سنة ٥٦٩ هـ •

---

(١٣) الكامل : جـ ٩ ص ١٠٢ •

(١٤) الروضتين : جـ ١ ص ٤٩٢ •

(١٥) الفخرى فى الآداب السلطانية ، ص ٢٦٤

وتوفي صلاح الدين سنة ٥٨٩ فحكم بعده مصر ابنه الملك العزيز عماد الدين عثمان ، وقد يسر له أخوه الملك الأفضل السبيل اذ أرسل الى الامام الناصر لدين الله في بغداد بالانشاء العمادي وفيه : (لقد أحاطت العلوم الشريفة بأن الوالد السعيد الشهيد المبيد للشرك لم يزل أيام حياته والى ساعة وفاته مستقيما على جدد الحق ، ومصر بل الأمصار باجتهاده في الجهاد شاهده ، وما خرج من الدنيا الا وهو في حكم الطاعة الامامية داخل وبمتجرها الـرابح الى دار المقامة راحل ، ولم تكن له وصية الا بالاستمرار على جادتها ، وان مضى الوالد على طاعة امامه فالمماليك — أولاده واخوته — في مقامه)[١٦] .
وظل العزيز عثمان حاكما لمصر حتى توفي سنة ٥٩٥ هـ . وولي بعده ابنه الملك المنصور الحكم وكان عمره تسع سنين ، لكن الملك الأفضل جاء الى مصر وكتب الى عمه العادل يخبره بوصوله حفاظا على دولة ابن أخيه وأصبح الأمر له ولم يبق للمنصور الا الاسم فقط[١٧] .
وطمع الأفضل في أن يتولى دمشق أيضا لكن عمه العادل أبا بكر ينازعه الحكم ويستولي على مصر وخطب له بديار مصر والشام وغيرها وذلك في سنة ٥٩٦ هـ وجعل ابنه الكامل محمدا نائبا عنه بمصر ، ولما توفي الملك العادل سنة ٦١٥ هـ كان من الطبيعي أن يقوم بعده الملك الكامل وظل يحكم مصر حتى توفي سنة ٦٣٥ هـ ودفن بدمشق ، وتولى بعده ابنه العادل الاصغر لكنه اشتغل باللهو واستوحش ذلك منه الامراء فتم خلعه سنة ٦٣٧ هـ[١٨] وقام بعده أخوه نجم الدين أيوب فضبط الأمور وقام بأعباء المملكة ، وفي أيامه نزل الفرنج بدمياط سنة ٦٤٧ هـ وكان بدمشق مريضا ، فلما علم بغزو الفرنج لدمياط غادر دمشق الى مصر

---

(١٦) مفرج الكروب : جـ ٣ ص ٥ .

(١٧) السلوك : جـ ١ ص ١٤٧ .

(١٨) السلوك : جـ ١ ص ٢٣٦ .

لكنه مات بناحية المنصورة وكتمت أم ولده (شجرة الدر) أمر موته واستدعت ابنه توران شاه من حصن كيفا وسار الى دمشق وتسلطن بقلعتها ، ثم ركب الى مصر ولما نزل بالصالحية أخبر بموت أبيه ، فسار الى المنصورة وكان له الفضل فى هزيمة الفرنج فى حملتهم الأخيرة التى قادها لويس التاسع .. ولكنه أساء تدبير الأمور وتهدد البحرية حتى خافوه ، فاغتاله مماليك أبيه سنة ٦٤٨ هـ ولم تفلح المحاولات فى أن تملك شجرة الدر الحكم فى مصر كما أراد البعض ، فكان موت توران شاه نهاية حكم الأيوبيين وزالت معه دولتهم من ديار مصر .. تلك الدولة التى وضحت قوتها فى مواجهة الصعاب وتصدت لغزوات الفرنج على البلاد فرفعت راية الاسلام عالية ، وحمت البلاد من اطماع أعداء الدين .

ثالثا : الصراعات والمعارك الداخلية :

لقد سيطرت على العصر الأيوبى صراعات كثيرة وواجه ملوكها مواقف قاسية ومشكلات قوية ، ومن الطبيعى ما دمنا نتكلم عن البيئة وأثرها فى الأدب ، فلابد أن ندرك ان ذلك سيظهر أثره فى نتاج الشعراء حيث نبرزه فى مجاله .

— ومن هذه الصراعات ما كان من وحشة بين صلاح الدين ونور الدين حاكم الشام فقد كان كل منهما يتخوف من الآخر . ففى سنة ٥٦٧ هـ[١٩] خرج صلاح الدين من مصر غازيا الفرنج وضيق عليهم فى حصن الشوبك حتى طلبوا الأمان ، ومن ناحية أخرى حاصرهم نور الدين ، ولكن هناك من أوعز الى صلاح الدين بأن نور الدين يريد السيطرة عليه وأشاروا عليه بالعودة الى مصر فرحل وترك ما أصابه من نصر على العدو مما أساء نور الدين فعزم على اخراجه من مصر ، ويكاد

---

(١٩) الكامل : جـ ٩ ص ١١٣ .

الأمر يتفاقم خطره لولا حكمة نجم الدين أبى صلاح الدين الذى ينصحه بالاعتذار الى نور الدين فهو الناصر له ، ويفعل صلاح الدين ما أشار به أبــوه [٢٠] .

ويتكرر الموقف ثانية سنة ٥٦٨ هـ حين ذهب صلاح الدين الى الكرك لحصارها ، لكنه يعود ثانية خشية ان يعزله نور الدين فى غيبته عن مصر فيعود متعللا بمرض أبيه ، وخشيته أن ينال مصر أذى من داخلها واذا ما حدث هذا فستخرج مصر من أيديهم ، ويقبل نور الدين عذره ويقول للرسول : (حفظ مصر أهم عندنا من غيرها) [٢١] .

وحين مات نور الدين فى سنة ٥٦٩ هـ تعرض صلاح الدين لصراع مع أهل حلب الذين استبعدوا عليه الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين وعمره ١٢ سنة ، وعمدوا الى ابراز أن صلاح الدين جاحد احسان أبيه، واستنجد الصالح اسماعيل بابن عمه سيف الدين غازى ، واستمر القتال وهزم عسكر سيف الدين ، وقطعت الخطبة عن ابن نور الدين ، ثم تم الصلح على أن يكون لكل منهم ما بيده من بلاد الشام ، وعاد صلاح الدين الى مصر [٢٢] .

ــ كذلك واجه صلاح الدين فى أول تكوين دولته صراعات كثيرة ممن احزنهم زوال الدولة الفاطمية ، وكانوا يهدفون الى اعادة حكمها وذلك فى سنة ٥٦٩ حيث اجتمعت طائفة من أهل القاهرة تضم جماعة من الشيعة وداعى الدعاة وبعض من جند القصر واتفقوا على الفتك بصلاح الدين واقامة رجل من أولاد العاضد . وكان ضمن هذه الجماعة

---

(٢٠) السلوك : جـ ١ ص ٤٩ .

(٢١) الكامل : جـ ٩ ص ١٢١ .

(٢٢) المرجع السابق : جـ ٩ ص ١٣٢ ، ص ١٣٩ .

الشاعر اليمنى ، لكن صلاح الدين يحاط علما بهذه المؤامرة وتمكن من احباطها والقضاء على أصحابها وصلبهم [٢٣] .

وفى سنة ٥٧٠ هـ يواجه صلاح الدين عاصفة أخرى حين جمع كنز الدولة والى أسوان العرب والسودان وقصد القاهرة وقتل عدة من أمراء صلاح الدين [٢٤] وكانوا أيضا يهدفون الى اعادة الحكم الفاطمى، لكن يقضى على الكنز ويقتل وهو فى طغيانه ومن معه من الاعراب . وأمنت البلاد واطمأن أهلها [٢٥] . وفى سنة ٥٧١ هـ تثب عدة من الاسماعيلية على صلاح الدين لكنه ظفر بهم [٢٦] . وفى سنة ٥٧٢ هـ كانت فتنة مقدم السودان من صعيد مصر للعودة بالحكم الى الفاطمية ، فأرسل صلاح الدين الى محلتهم المعروفة بالمنصورة فأحرقها على أموالهم وأولادهم وابيدوا بالسيف ولم يبق منهم الا القليل الشريد ، وقتل كبيرهم [٢٧] وأهلكهم الله بذنوبهم كما قبض على رجل بالاسكندرية يقال له قديد من دعاة الفاطميين وقبض على كثير من السودان وكووا بالنار فى وجوههم وصدورهم [٢٨] . ولم تهدأ محاولات المناوئين لصلاح الدين ، ففى سنة ٥٨٤ هـ ثار بالقاهرة جماعة من الشيعة العلويين (يا آل على يا آل على) وظنوا أن رعية البلد يلبون دعوتهم ويخرجون بعض من فى القصر محبوسا منهم ويملكون البلد ولكن لم يلتفت اليهم أحد فتفرقوا خائفين .

واذا كان ما سبق يمثل صراع الحكام على من ناهضوا حكمهم ، فماذا يقال آذا كان الصراع الداخلى فى الدولة الأيوبية بين أفراد البيت

---

(٢٣) المرجع السابق : جـ ٩ ١٢٣ .
(٢٤) السلوك : جـ ١ قسم ١ ص ٥٣ .
(٢٥) الكامل : جـ ٩ ص ١٣٠ .
(٢٦) السلوك : جـ ١ قسم ١ ص ٦١ .
(٢٧) الكامل : جـ ٩ ص ١٠٣ ، والنجوم الزاهرة : جـ ٦ ص ٧٨ .
(٢٨) السلوك : جـ ١ قسم ١ ص ٥٤ .

الأيوبى مما كان يحمل خطرا قويا ، يقول عنه ابن واصل : (انها حقبة خطيرة أوشك فيها هذا البناء الشامخ الذى بناه صلاح الدين أن ينقض وأوشكت الوحدة القوية التى كد فى تكوينها أن تنفصم عراها) (٢٩) . ومن أمثلة ذلك :

— ما كان من وحشة بين الملك العزيز عثمان صاحب مصر والملك الأفضل صاحب دمشق وزادت الجفوة فى سنة ٥٩٠ هـ ووصلت الى حد القتال لولا أن الملك العادل وبعض الامراء اختاروا الصلح بينهما (٣٠) .

— ومنها أيضا ما كان بعد وفاة الملك العزيز عثمان حين جاء الملك الأفضل الى مصر لحماية ابن أخيه الصغير ، الذى لم يكن له غير الاسم فقط ، وطمع الافضل فى أن يتولى دمشق أيضا لكن عمه العادل يتجه اليه ويهزمه ، ويقول له : لا تحوجنى ان أخرق قاموس القاهرة وآخذها بالسيف ، اذهب الى صرخد وأنت آمن على نفسك ، ولم يجد الأفضل بدا من التسليم وتسلم العادل القاهرة ، وكان يهدف بعد ذلك الى الاستيلاء على الحكم فى مصر ، فقد استعان بالأسدية الذين اختاروه اتابكا للطفل الصغير المنصور ثم عزله وعين نفسه حاكما على مصر وتعلل على ذلك بقوله :

(قبيح أن أكون أتابك صبى صغير مع الشيخوخة والتقدم ، والملك ليس بالارث وانما هو لمن غلب) (٣١) . وهكذا خطب للعادل سنة ٥٩٦ هـ

ولا ينتهى الصراع بين الاخوة وأفراد البيت الأيوبى الا بانتهاء

---

(٢٩) مفرج الكروب : جـ ٣ ص ٤ .
(٣٠) السلوك : جـ ١ قسم ١ ص ١١٦ ، والكامل : جـ ٩ ص ٢٣١ .
(٣١) المرجع السابق : جـ ١ قسم ١ ص ١٥٢ ، ومفرج الكروب جـ ٣ ص ١١١ .

الدولة ، فان السلطان نجم الدين لم ينل الحكم الا على أنقاض حكم أخيه الملك العادل الصغير حيث قبض عليه الأمراء وتم خلعه ، وتولى نجم الدين الحكم سنة ٦٣٧ هـ ، ويستمر الى نهاية الدولة سنة ٦٤٨ هـ

رابعا — الصراع مع الفرنج :

من العلامات البارزة فى العصر الأيوبى تلك الحروب والصراعات بين الحكام والفرنج ، ذلك الصراع الذى بدأ مع الأيوبيين قبل اعلان دولتهم ولمسناه فى الحديث عن انتهاء الدولة الفاطمية وكيف ان وزيرها استعان بهم لمواجهة بنى أيوب مثلما حدث فى سنة ٥٦٢هـ ، سنة ٥٦٤هـ وبعد أن تولى صلاح الدين الوزارة خلفا لعمه واجه وحده تلك الهجمات واتجه الصليبيون الى طرق أبواب جديدة في الديـــار المصرية ، ففى سنة ٥٦٥ هـ اتجهوا الى حصار دمياط آملين أن تكون طريقا ميسرا يصل بهم الى مصر والسيطرة عليها . وتتضافر الجهود فى سبيل صد هـذا الهجوم فالخليفة العاضد يعطى المـال والثياب [٣٢] ونور الدين يغير على مواقعهم فى الشام ، وصلاح الدين مستمر فى قتالهم بدمياط ، فلم يجدوا أمام ذلك الا الرجوع عن دمياط خائبين لم يظفروا بشىء أو ينالوا خيرا [٣٣] .

ولا يهدأ بال الفرنج ففى سنة ٥٦٩ هـ وبعد أن تكونت الدولة الأيوبية نزل أسطول الفرنج هـذه المرة ثغر الاسكندرية وطغوا على أهلها وحاصروا المدينة ، لكن المسلمين وقائدهم صلاح الدين هجمـوا عليهم وحرقوا عتادهم ، وايدهم الله بنصره فعاد الفرنج أدراجهم سنة ٥٧٠ هـ[٣٤] ويتجهون بعـد ذلك الى ساحل تنيس سنة ٥٧٥ هـ واتجهت

(٣٢) النجوم الزاهرة : جـ ٦ ص ٧ .

(٣٣) المرجع السابق : جـ ٦ ص ١٦ ، والكامل : جـ ٩ ص ١٠٥ .

(٣٤) السلوك : جـ ١ قسم ١ ص ٥٦ .

مراكبهم من دمياط لتكون فى ساحل مصر [٣٥] يريدون بذلك تطويق مصر من أى جهة تيسر لهم حصارها والسيطرة عليها .

وفى سنة ٦٠٠ هـ بعد وفاة صلاح الدين خرج أسطول الفرنج الى مصر وعبر النيل من جهة رشيد فوصل الى فوة وأقام خمسة أيام ينهب ويسبى وعساكر مصر أمامهم بينهم النيل دون أن يستطيعوا الوصول اليهم فلم تكن لهم سفن ولعدم وجود الأسطول العادلى [٣٦] .

وان أقسى ما آذى المسلمين فى مصر من الفرنج ما كان فى سنة ٦١٥ هـ فى عهد الملك الكامل فقد أحسوا أهمية مصر . وأنهم لكى يحموا ديارهم فى الشام لابد من السيطرة على مصر ، ويقول ابن واصل :

(ولما طالت مدة اجتماع الفرنج بمرج عكا اجتمعوا للمشورة ورأوا قصد مصر أولا ، وقالوا ان الملك الناصر صلاح الدين انما استولى على الممالك وأخرج القدس والساحل من أيدى الفرنج بملكه ديار مصر وتقوية رجالها ، فالمصلحة أن نقصد مصر أولا ونملكها ، وحينئذ لايبقى لنا مانع من أخذ القدس وغيره) [٣٧] . ولقد قصد الفرنج دمياط هذه المرة وطال غزوهم واحتلالهم لها ثلاث سنوات ، وصمد أهل دمياط وصبروا صبرا لم يسمع مثله ، وكثر فيهم القتل والموت ويصعب الأمر على المسلمين حتى سقطت دمياط فى أيدى الفرنج سنة ٦١٦ هـ حين عجز الملك الكامل عن نصرة أهلها ففتحوا الأبواب وسلموا البلاد للفرنج . وأهلت سنة ٦١٧ وكانت من اشق السنين وأشدها على أهل مصر [٣٨] . وضج الناس فأعلن الملك الكامل الجهاد فى البلاد وطلب نصرة أخويه الملك الاشرف موس والملك المعظم عيسى فهب الأخوان لنجدته ، وتأتى

---

(٣٥) المرجع السابق : جـ ١ قسم ١ ص ٧١ .
(٣٦) المرجع السابق : جـ ١ قسم ١ ص ٥٦ .
(٣٧) مفرج الكروب : جـ ٣ ص ٢٥٨ .
(٣٨) السلوك : جـ ١ قسم ١ ص ٢٠٥ .

سنة ٦١٨ هـ وقد أراد الله أمرا اذ اشتد أزر المسلمين وبدأوا فى مهاجمة العدو ، وأمام هذه المقاومة لا يملك الافرنج الا طلب الصلح ولكن لا يخلو الأمر من غرورهم وصلفهم ، فقد طلبوا مقابل تسليم دمياط ان يتسلموا البيت المقدس وعسقلان وطبرية وسائر ما فتحه صلاح الدين من بلاد الساحل ، وأجابهم الملوك الى رغبتهم ما خلا الكرك والشوبك، لكن الفرنج أبوا قائلين : (لا نسلم دمياط حتى تسلموا ذلك كله) [٣٩] . ولا يستكين المسلمون ويستمر القتال فقد عز عليهم أن يهدروا عمل صلاح الدين وما صنعه من أمجاد أكبرها تحرير بيت المقدس .

وأمام جهاد المسلمين تجمع الفارس والراجل من الفرنج وأرسوا على ترعة وكان البحر زائدا فعبر بعض المصريين وفتحوا على الفرنج الترع من كل مكان ، وأحاطت المياه بهم ومنعتهم كثرة الوحل والمياه من التحرك ، بل وعجزوا عن استمرار اقامتهم لقلة المدد والمعونة ورضخوا ولجأوا الى الصلح مع الملك الكامل واخوته وبعثوا يطلبون الأمان لأنفسهم وأنهم يسلمون دمياط بغير عوض[٤٠] . وتم الصلح فى تاسع عشر من شهر رجب سنة ٦١٨ هـ وعاد الفرنج الى عكا وتسلم الملك الكامل دمياط [٤١] وكان يوما مشهودا حيث أعطى المسلمون ظفرا لم يكن فى حسبانهم فقد كانت غاية أمانيهم أن يسلموا البلاد التى أخذت منهم بالشام ليستعيدوا دمياط ، فرزقهم الله اعادة دمياط وبقيت البلاد بأيديهم على حالها [٤٢] .

وينعم المصريون ببلادهم ويستمر أمانهم واستقرارهم ثم تأتى سنة ٦٤٧ هـ وينسى الفرنج ما حل بهم من هزيمة ويعود اليهم الأمل مرة

---

(٣٩) المرجع السابق : ص ٢٠٦ ، والكامل : جـ ٩ ص ٣١٨ .
(٤٠) المرجع السابق : ص ٢٠٦ .
(٤١) النجوم الزاهرة : جـ ٦ ص ٢٤١ .
(٤٢) الكامل : جـ ٩ ص ٣١٨ .

أخـرى فى أن ينالوا من مصر مكسبا ، ويقود الملك لويس التاسـع حملة كبيرة ويصل به الغرور الى ارسال رسالة الى الملك نجم الـدين أيوب يقول فيها : —

(أما بعد ، فانه لم يخف عليك أنى أمين الأمـة العيسوية كما أنى أقول انك أمين الأمة المحمدية ، وأنه غير خاف عنك أن أهل جـزائر الأندلس يحملون الينا الأموال والهدايا ، ونحن نسوقهم سوق البقـر ونقتل الرجال ونرمل النسـاء ونستأثر البنات والصبيان • وقد عرفتك وحذرتك من عساكر قد حضرت فى طاعتى تملأ السهل والجبل عددهم كعدد الحصى ، وهم مرسلون اليك بأسياف القضا) •

وتأتى رسالة الملك الصالح نجم الدين بانشاء البهاء زهير ترد عليه وعلى غروره جاء فيها ، — (بسم الله الرحمن الرحيم وصلواته عـلى سيدنا محمد رسـول الله وآله وصحبه أجمعين ، أما بعد : فقد وصل كتابك وانت تهدد بكثرة جيوشك وعدد أبطالك ، فنحن أرباب السيوف وما قتل منا قرن الا جددناه ، ولا بغى علينـا باغ الا دمرناه ، فلو رأت عيناك أيها المغرور حد سيوفنا وعظم حروبنا وفتحنا منكم الحصون والسواحل ، وأخربنا منكم ديار الأواخر والأوائل لكان لك أن تعض أناملك بالنـدم ولابد أن تزل بك القدم ، ان الباغى لـه مصرع ، وبغيك يصرعك والى البلاد يقلبك • والسلام)[٤٣] •

وتتجه هذه الحملة الصليبية الجديدة الى دمياط بزعامة ذلك الملك الذى جعل من نفسه أمين الأمة المسيحية التى تتبع عيسى بن مريم ، وجعل نفسه القائد العظيم الذى يستطيع ان يهز أمن المسلمين تابعى أمـة محمـد ﷺ • وحـين نزل جيش الفرنج دمياط وجـدها

---

(٤٣) السلوك : جـ ١ قسم ٢ ص ٣٣٤ ، ص ٣٣٥ •

قوية التحصين فلجأ الى البر الغربى بدمياط ودارت معركة بين الفريقين. اضطرت فيها خيول المسلمين الى خوض البحر ٠

وحدث ان اتجه الجيش الى البر الشرقى حيث مدينة دمياط وكان فى ذلك فرصة لدخول الأعداء المدينة فملكوها بغير قتال (٤٤) ٠ واتجهوا الى الفساد فى المدينة فحولوا الجوامع الى كنائس ، فكان ذلك (مصيبة لم يجر مثلها) (٤٥) ولقد أمر الملك الصالح نجم الدين أيوب بشنق من أهملوا الدفاع وذلك رغم مرضه حيث نقل من الشام الى مصر فى محفة ورغم قسوة المرض عليه فانه كان يدير المعركة ويوجه الصفوف ويطلب الامداد من القاهرة ، ولم يتوان المسلمون عن حماية بلادهم فعاودوا القتال ٠

ويقضى الله أمره حيث يتوفى الملك الصالح نجم الدين وأخفت زوجته شجرة الدر الخبر حتى يأتى ابنه توران شاه من حصن كيف بديار بكر ، لكن الفرنج يعلمون الخبر فيزيدهم طمعهم الى أن يتركوا دمياط ويصلوا الى قلب مصر (٤٦) ، وقد اختار لويس وجنوده ان يسلك طريق الدلتا فعبروا بحر أشموم ، ولكنهم أخطأوا التقدير حيث واجههم المسلمون فى هذا الطريق ، ونجح توران شاه فى توجيه المقاومة ضد الأعداء وفى هذه الحملة أسر لويس التاسع مع كثير من جنوده وساقه المسلمون مكبلا بالأغلال الى المنصورة وسجن فى دار لقمان واستمر حتى تمت المفاوضات بين المسلمين وأعدائهم على اطلاق سراح لويس التاسع بعد دفع فدية كبيرة ، كذلك أطلق سراح من بقى من الغزاة ، وتم خلاص دمياط من رجسهم ٠

---

(٤٤) المرجع السابق : ص ٣٣٦ ٠

(٤٥) النجوم الزاهرة : ج ٦ ص ٣٣٠ ٠

(٤٦) السلوك : ج ١ قسم ٢ ص ٣٢٦ ٠

وأرسل الملك توران شاه الكتب الى الممالك الاسلامية بالتهنئة والبشارة ، ومما كتبه الى نائبه فى دمشق :

(الحمد لله أذهب عنا الحزن ، وما النصر الا من عند الله ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله .. نبشر المجلس السامى الجمالى بل نبشر المسلمين كافة بما من الله به على المسلمين من الظفر بعدو الدين ... وما زال السيف يعمل فى أدبارهم وقد حل بهم الخزى والويل وقتلنا منهم ثلاثين ألفا غير من ألقى نفسه فى اللجج ، وأما الاسرى فحدث عن البحر ولا حرج ، والتجأ الفرنسيس الى المنية وطلب الأمان فأمناه وأخذناه وأكرمناه ، واستلمنا دمياط بعون الله تعالى وقوته وجلاله وعظمته)[٤٧] .

تلك صورة عامة للحياة السياسية فى مصر فى العصر الأيوبى، أردت أن أوضح فيها الجوانب التى كانت ذات ملامح بارزة فى عين واحساس أدبائها ، حيث كانت لهم النظرة المتفحصة التى يستطيعون أن يسجلوا بها هذا التاريخ وهذه الأحداث ، فكان الأدب تأريخا بجانب التاريخ ، وتسجيل أحداث ومناسبات عاشها أصحابها وأثبتها القادرون على الكلمة والتعبير .

ثانيا : الناحية الاجتماعية :

تعد الحياة الاجتماعية من أبرز العناصر ارتباطا بفن الوصف ، ذلك أن الشعراء يرون أمامهم مظاهرها فيعبرون عنها خير تعبير « والحياة لاجتماعية لأمة من الأمم هى تلك الصورة العامة المجتمعة من ألوان العيش التى يعيشها طبقاتها ، وما يشيع فيها من عادات وأخلاق وأواصر وصلات تربط بين الأفراد والجماعات »[٤٨] .

---

(٤٧) الخطط : جـ ١ ص ٣٩١ ، السلوك ، جـ ١ قسم ٢ ص ٣٥٦ ، ص ٣٥٧ .

(٤٨) الأدب العربى وتاريخه : د / احمد الشعراوى ص ٢٣ .

وحين نتكلم عن تلك الحياة فى مصر فى العصر الأيوبى ، فلابد أن نشير وأن نوضح ما رآه الشعراء من ملامح هذا المجتمع ، ومـا نلمسه فى شعرهم من عادات وأخلاق وتصوير لملامح الحضارة وسوف أعرض منها ما يكون متصلا بفن الوصف الذى أبدع فيه شعراء هذا العصر ، خاصة حين ندرك أن الشعراء كانت لهم العين الفاحصة والنظرة الشاملة لجوانب الحياة الاجتماعية ، وسنجد أن النتـاج الأدبى كان صورة صادقة لتلك الحياة فى غناها وترفها من جانب ، وفقرها وبؤسها من جانب آخر ، كان يعكس حياة اللهو وحياة الجد الى غير ذلك من المظاهر التى اتصف بها المجتمع المصرى زمن الأيوبيين ، والتى ينبغى ابرازها وبيان ملامحها وأثرها على شعر الوصف . ومن هذه المظاهر :

١ ـــ الملامح الحضارية والعمرانية :

ان بيان هذه الملامح يعنى ابراز النهضة العمرانية التى يحرص الحكام والقادرون على ايجادها فى مجتمعهم لتكون عنوانا على المظهر الحضارى لهذا المجتمع . وحين ننظـر الى ذلك الجـانب فى العصر الأيوبى سنجد ان البيئة المصرية تميزت بوضوح ملامح الحضـــارة والبناء والمظهـر الجميل فقد كان الاهتمام كبيرا ببناء القصور وبناء « المناظـر » على النيل ، وكذلك بناء الجسور . ومن ذلك :

ـــ قلعة الروضة :

لقد بنى السلطان نجم الدين أيوب فى جزيرة الروضة قلعـــة عظيمة واختار أن تكون سرير السلطنة ، ومما يقال انه اهتم ببنائهـا وان من أجل ذلك هدم كثيرا من الدور والقصور والمساجد مما كان فى الجزيرة وأدخلها فى القلعة ، وان ايوان جلوس السلطان لم ير مثاله . ويقدر ما أنفق عليه وفيه من صفائح الذهب والـرخام والآبنـوس والكافورى والمجزع ما يذهل الأفكار ويستوقف الأبصار .

ويصف ابن جبير هذه القلعة بأن بنيانها حصن يتصل بالقاهرة حصين المنعة يريد السلطان أن يتخذه موضع سكناه ، ويمد سوره حتى ينتظم بالمدينتين مصر والقاهرة ، وقد استخدم فى بنيانه من سخرهم من الأسرى الروم وعددهم لا يحصى كثرة ولا سبيل أن يمتهن فى ذلك البنيان أحد سواهم ، وكانوا يقومون بنشر الرخام ونحت الصخور وحفر الخندق المحدق بسور الحصن وهو خندق ينقر بالمعاول نقرا فى الصخر عجيبا من العجائب الباقية (٤٩) • ولقد بلغ الاهتمام ببناء هذه القلعة ان كان من مواد بنائها ما كان ينقض من موضع سجن يوسف عليه السلام فى مدينة بالصعيد غربى النيل وهو حصن حصين ننقل أحجاره الى القلعة (٥٠) •

ولقد تعددت اسماء هذا البناء الرائع ، فكانت قلعة الصالحية ، وقلعة الروضة ، وقلعة الجزيرة ، وفى كل اسم ما يدل على سبب التسمية ، فهى مرة منسوبة الى اسم الحاكم أو منسوبة الى الروضة أو الى جزيرتها •

ويتضح فى بناء القلعة أن بنى أيوب كانوا يجيدون استخدام كل عنصر من عناصر البناء فى دولتهم ، خاصة أنهم عاشوا فترة حكمهم تحدق بهم الأخطار ، وهم حين اتجهوا الى العمارة والبناء لم ينسوا جانب الحرص والخوف على بلادهم ، ولذا يقول المقريزى : « ان نجم الدين أيوب أراد حين بناها أن يجعلها ترسانة للاسلحة وآلات الحرب حيث شحنها بذلك حين علم أن الفرنج عزموا على قصد بلاد مصر » (٥١) •

وكأنما ارتبطت هذه القلعة بالأيوبيين ، فلم تزل عامرة حتى

---

(٤٩) رحلة ابن جبير : ص ٢٥ •
(٥٠) المرجع السابق : ص ٣٢ •
(٥١) الخطط : ج ٢ ص ١٨٣ •

زالت دولتهم ، فلما ملك المعز عز الدين أيبك أول ملوك الترك مصـــر أمـــر بهدمها وعمر منها مدرسته المعروفة بالمعزية (٥٢) .

وكان مما أهتم به حكام بنى أيوب أيضـــا بناء قصـــور العلاج كما كان من بناء المارستان الذى شاده السلطان صلاح الدين بمدينة القاهرة وهو من القصور الرائعة حسنا واتساعا وقد جعله صلاح الدين لهذا الغرض تأجرا واحتسابا (٥٣) .

المدن والبلدان :

ان المتتبع لجوانب الحياة الاجتماعية والحضارية فى مصـــــر فى تلك الفترة يجد ملامحها متمثلة فى روعة البناء وكأن مصر كلهـــا مبان جميلة وبساتين رائعة .. وتلك هى الحقيقة فقد كانت مظاهـــر الجمال والحضارة تعم مصر وديارها . فمن المدن التى شهد لها بالجمال مدينة الفسطاط التى قيل فيها انها مدينة حسنة ينقسم النيل لديها ، وهى مدينة مستطيلة يمر النيل مع طولهـــا ويحط فى ساحلها المراكب الآتية من شمال النيل وجنوبه بأنواع الفوائد . ولهـــا متنزهات (٥٤) . وعلى حين فقدت الفسطاط أهميتها السياسية كعاصمة اسلامية كما ورد فى كتاب المقريزى (ومذ بنيت القاهرة ضعفت مدينة الفسطاط وفرط فى الاغتباط بها بعد الافراط) فانها كمدينة جميلة لم تـــزل تحتفظ بأبهتهـــا .

وقد اهتم الحكام بأن تكون مدن مصر كلها جميلة لا يفوتها ذلك من أى جانب ، فهناك أيضـــا مصر القديمة والقاهرة وكل هذه المدن لم يغفلوا عن اضافة المزيد لتبقى عامرة ، فمما يذكر أنه لمـــا كان قبل

---

(٥٢) المرجع السابق : جـ ٢ ص ١٨٤ .
(٥٣) رحلة ابن جبير : ص ٢٦ .
(٥٤) الخطط : جـ ١ ص ٣٤١ .

سنة ٦٠٠ هـ تقلص الماء عن ساحل مصر القديمة وصار فى زمن الاحتراق يقل حتى تعبر الطريق الى المقياس ... ولكن فى سنة ٦٢٧ هـ ينال الخوف من نفس السلطان الملك الكامل من تباعد البحر عن العمران بمصر فاهتم بحفر البحر وعمل فيها بنفسه ، واستمر العمل ثلاثة أشهر حتى صار الماء يحيط بالمقياس وجزيرة الروضة دائما بعد ما كان عند الزيادة يصير جدولا رقيقا فى ذيل الروضة .

بل اننا نجد أن الحكام قد يعمدون الى ما يسمى بتحويل مجرى النيل مثلما صنع الملك الصالح حين عمر قلعة الروضة وأراد أن يكون الماء طوال السنة كثيرا فيما دار بالروضة فاتجه الى اغراق عدة مراكب مملوءة بالحجارة فى بر الجيزة خارج مدينة مصر ومن قبلى جزيرة الروضة فانعكس الماء وجعل البحر حينئذ يمر قليلا قليلا وتكاثر أولا فأول فى بر مصر من دار الملك الى قرب المقس [٥٥] .

واذا تحدثنا عن مدينة الاسكندرية فاننا نجد أنها تلفت الانظار بما حوته من مظاهر الجمال وأبرزها منارتها التى يهتدى بها المسافرون فى البحر الى برها ، وحين زارها ابن جبير فى رحلته سنة ٥٧٨ هـ قال يصفها :

(زرنا أحد جوانبه الأربعة فألفينا فيه نيفا وخمسين باعا ، فى طوله أزيد من مائة وخمسين قامة ، وأما داخله فمرأى هائل واتساع معارج (سلالم) ومداخل ، وكثرة مساكن حتى ان المتصرف فيها والوالج فى مساكنها ربما ضل . وشاهدنا من شأن مبناه عجبا لا يستوفيه وصف واصف) [٥٦] .

ان شهادة ابن جبير على دقة بناء منارة الاسكندرية يوضح جمال

---

(٥٥) المرجع السابق : جـ ١ ص ٣٤٤ .
(٥٦) رحلة ابن جبير : ص ١٥ .

هذا البناء العظيم ، وكيف انها لم تكن قاصرة على مهمتها من حيث كونها ترشد السائر في عرض البحر وانما هى بنـاء يحتوى على سلالم متعددة ومساكن كثيرة ، قد تكون متاهة يضل فيها من يجول ، وما أبلغه حين قال : ان الواصف لهذا المبنى ليعجز أن يوفيه حق الوصـف ؛ لقـد ذكر ابن جبير هذا وهو لم يزر الا جانبا واحدا من الجوانب الأربعة للمنارة .. فماذا اذن كان يمكنه أن يقول لو زار الجـوانب الأخـرى ؟

وعلى طول العصر الأيوبى ظلت الاسكندرية تحظى بالجمـال والتأنق الذى عبر عنه كل من زارها ، ففى سنة ٦٤١ هـ فى ولاية الملك الصالح نجم الدين أيوب زار أبو المظفر الاسكندرية فراعة جمالهـا ووجدها غنية بروعة البناء وجمال المرأى ، وعمق الفكر فى أصحابها فقـال : ــ

(وسافرت الى الاسكندرية فوجدتها كما قال الله تعالى : (ذات قرار ومعين) (*) معمورة بالعلماء مغمورة بالأولياء الذين هم فى الدنيا شامة كالشيخ محمد القبارى والشاطبى وابن أبى أمامة) [٥٧] .

وتنتشر مظاهر الجمال والحضارة فى ربوع مصر ، فعلى شاطىء النيل مما يلى غربيها قرية كبيرة تعرف بالجيزة ويعترض بينها وبين مصر جزيرة فيها مساكن حسان وعلالى مشرفة ، وهى مجتمع اللهـو والنزهة ، وحين نتجه الى الجنوب فى صعيد مصر نجـد مدنها هـى الأخرى قد تميزت بجمال منظرها فهناك بلدة « منفلوط » التى قيل عنها انها نهاية فى الطيب ليس فى الصعيد مثلها ، كذلك مدينة « أسيوط » جميلة المنظـر حولهـا بساتين النخل وسورها سور عتيق بديع المنظر

(*) الآية ٥٠ من سورة المؤمنون : « وجعلنا ابن مريم وامه آيـة وأويناهما الى ربوة ذات قرار ومعين » .

(٥٧) النجوم الزاهرة : جـ ٦ ص ٣٤٧ .

اسفله هيكل نحت نحتا غريبا وعلى بلاطاته تصاوير منها ما جللته طيور بصور رائعة باسطة أجنحتها توهم الناظر اليها أنها تهم بالطيران ، ومنها ما جللته بتصاوير آدمية رائعة الشكل قد أعدت لكل صورة منها هيئة هي عليها كامساك تمثال بيدها ، أو سلاح أو طائـر أو كأس أو اشارة شخص الى آخـر بيده أو غير ذلك (٥٨) .

لقد تمتعت مدينة أسيوط بسبل كثيرة للجمال ، ما بين المظاهـر الطبيعية المتمثلة فى انتشار بساتين النخل ، كذلك ما صنعته يد الفنان من بناء سورها ، وما نحت عليه من ألوان فن النحت ، فهى مدينـة تحوى الجمال الشامل .

ومن المدن التى وضح فيها أيضـا الفن والجمال مدينة « قفط » وهى من المدن المذكورة فى الصعيد حسنا ونظافة بنيان واتقان صنع ، كذلك عرفت مدينة « بوصير » بكثرة الاسواق والحمامات ، كذلك مدينة قنـا وهى بيضـاء أنيقة المنظر ذات مبـان حفيلة (٥٩) .

الخلجـان والبرك :

من ملامح الحضارة أيضـا الخلجان والبرك ، واشتهر منهـا الخليج الناصرى الذى يخرج من مجرى النيل ويصب فى الخليج الكبير ، وكان خليج ابن وائل وهو مما يلى مصر القبلية من أحسن الأماكن فقد كل ماء النيل يدخل منه الى بركة الحبش (٦٠) .

وأما البرك فكان منها بركة الفيل وبركة الكبش وبركة الحبش ، وليس الجمال فى هذه البرك قاصرا على تدفق المياه فيها أو منها ، وانما

(٥٨) رحلة ابن جبير : ص ٣٦ .

(٥٩) المرجع السابق : ص ٤٠ .

(٦٠) الخطط المقريزية : ج ٢ ص ١٥٥ .

كان يكمله ما كان يقام حولها من « مناظــر » تضفى عليها البهــاء والبهجة ، فقد كانت هناك « مناظر » الكبش وهى مشرفة على البركة التى تعرف ببركة قارون عند الجسر الأعظم الفاصل بين بركة الفيــل وبركة قارون ، وقد أنشأها الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل فى أعوام ستمائة وبضع وأربعين ، وهذه « المناظر » تشرف على البساتين من أعلى جبل يشكر ، وترى باب زويلة والقــاهرة ، وترى باب مصر وقلعة الروضة وجزيرتها ، وترى أيضــا البحر الأعظم وبر الجزيرة ، فكانت من أجمل متنزهات مصر ، وتأنق نجم الدين فى بهائها وسماها « الكبش » [٦١] .

وأما بركة « الفيل » فقد كانت من أجمل مساكن مصر كلها ، وقد عمر الناس حولهــا بعد الســتمائة ، وقال فيهــا ابن سعيد حين ذكر القاهــرة [٦٢] : (وأعجبنى فى ظاهرها بركة الفيل لأنها دائما كالبدر والمناظــر فوقها كالنجوم ، ومن عادة السلطان أن يركب فيها بالليــل ويسرج أصحاب المناظــر على قدر هممهم وقدراتهم فيكون بذلك منظر عجيب .

ان الجمال يغرى بأكثر منه ، فاذا كان السلطان من عادته أن يركب ويسير فى هذا المكان بموكب جميل كعادة السلاطين ، فان النــاس تتجاوب مع هــذا الموكب ويضىء كل منهم سراجه فيجتمع الجمال كله فى وقت واحــد .

ومن المناظــر التى تأنق الناس فى بنائها ما كان ببركة الحبش ، تلك التى صنعت من خشب مدهونة فيها طاقات تشرف عــلى بركـــة

---

(٦١) المرجع السابق : ج ٢ ص ١٣٣ .

(٦٢) الخطط : ج ٢ ص ١٦١ .

الحبش [٦٣] تلك البركة التى كانت موضع اعجاب كل من رآها ، وهاهو أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسى الذى زار مصر سنة ٤٨٧ هـ فى أيام الخليفة الفاطمى المستنصر بالله أبى تميم معد بن الظاهر [٦٤] .. وزار مواقع متعددة فيها كان ضمنها مدينة الاسكندرية ، والأهـرام وبركة الحبش التى أبهرته فقال فى وصفها[٦٥] :

لله يـــومى بيـــركة الحبش والأفـــق بين الضـــياء والغبش
والنيل تحت الريـــاح مضــطرب كصـــارم فى يمـــين مـــرتعش
وقمنـــا فى روضـــة مفوفـــة دمـــج بالنـــور عطفهـــا ورش
قـــد أنســـجتها يـــد الغمام لنـــا فنمنـــا من نسـجها على فـــرش

ان البرك والخلجان تأخذ على الناس أحساسهم وتأملهم وتأثرهم بالجمال ويتوارث هذا الاحســـاس على مر الأزمان كل من قدر له أن يتأمله وأن يرتبط به .

ومما بنى أيضا فى عصر الايوبيين ، تلك القنـــاطر التى بنـــاها السلطان صلاح الدين غربى مصر على مقدار سبعة أميال منها ، وأنشئت بعد رصيف ابتدىء من حيز النيل بازاء مصر كأنه جبل ممـــدود على الأرض ، والقنطرة متصلة بالصحراء التى يفضى منها الى الاسكندرية ولم يكن الهدف من ذلك ناحية جمالية فقط أو بناء حضاريا فحسب ، بل ان صلاح الدين أراد من هذا البناء ان يكون طـــريق عبـــور الى الاسكندرية فى حالة هجوم الأعداء عليها فى وقت فيضان النيل وانغمار

---

(٦٣) المرجع السابق : جـ ٢ ص ٤٨٦ .

(٦٤) الرسالة المصرية : ص ٦ .

(٦٥) المرجع السابق : ص ٢٠ ، والخطط : جـ ٢ ص ١٥٤ .

الأرض به فيتعذر بذلك وصول العساكر اليها ، فكان ذلك تحسبا لما يعوق الوصول الى الاسكندرية (٦٦) .

٢ — المجالس ووسائل التسلية :

يقصد بالمجالس تلك التى يجتمع فيها الصحب والرفاق للتسلية والتسرية وكذلك اللقاءات الأدبية ، وقد وضح مما سبق أن البيئة المصرية قد شملتها نهضة عمرانية وحضارية تمتع بها الكثيرون ، وقد تلمسنا أن الاماكن والمجالس التى كان يتخذها المصريون مكان تجمع قد تعددت فهناك المتنزهات حيث ينعم الرفاق بلقاءاتهم بين أحضان الطبيعة ، كذلك فى الجزر التى تنحسر عنها مياه النيل فتعد جنة ينعم فيها الناس باللقاء كما كانت هناك أيضا المناظر المطلة على النيل تلك التى يملكها الأغنياء وأصحاب الجاه فى مصر ، كما يملكون القصور، ومنهم الشاعر ابن سناء الملك ، وكان يتم فى هذه المجالس سماع الغناء والموسيقى ومن أماكن ومجالس اللهو أيضا فى مصر « الأديار » ومنها دير القصير فى أعلى جبل المقطم ، حسن البناء ، ويقصده الناس لحسن موقعه واشرافه على مصر وأعمالها (٦٧) . ويقول على بن ظافر ، انه كان يمضى مع رفاقه الى هذا الدير يتنزهون فى حسن منظره ويتبادلون القول ، وكان منهم الشهاب الذى قال فى دير القصير (٦٨) :

سقى الله يومى بدير القصير قصير العزالى طويل الذيول

محل اذا لاح لى لم أقف بصحبى على حومل فالدخول (٦٩)

---

(٦٦) رحلة ابن جبير : ص ٢٧ .

(٦٧) الديارات للشابشتى : ص ٢٨٤ .

(٦٨) بدائع البدائة : ص ٢٢٧ .

(٦٩) يشير الشاعر الى قول امرىء القيس فى معلقته :

قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

كذلك يوجد « دير مرحنا » وهو على شاطىء بركة الحبش قريب من النيل والى جانبه بساتين ، وهذا الموضع من مغانى اللعب ومواطن القصف والطرب ، وهو نزه فى أيام النيل وزيادة البحر وامتلاء البركة حسن المنظر فى أيام الزرع .

كما كانت القرافة وهى جبانة مصر أحد هذه المجالس التى يجتمع فيها الصحب ينعمون بلحظات الترف والسمر ، وكانوا يمضون أوقاتهم فى سماع الموسيقى والغناء ، وهذا من عجيب الأمر والتناقض ، فاذا كان هذا أمر جبانة الموتى فلا عجب ان يقول فيها القائل (٧٠) :

ان القرافة قد حوت ضدين من دنيا وأخرى فهى نعم المنزله

يغشى الخليج بها السماع مواصلا ويطوف حول قصورها المتبتله

كم ليلة بتنا بها ونديمنا لحن يكاد يذوب منه الجندله

والبدر كم ملأ البسيطة نوره فكأنما قد فاض فيه جدوله

وبدا يضاحك أوجها حاكيته لما تكامل وجهه المتهلله

وقال آخر فى نفس المعنى الذى يوضح التناقض فى هذا الموقع :

عجبت من أمر القرافة اذ غدت على وحشة الموتى لها قلبنا يصبو

فألفيتها مأوى الأحبة كلهم ومستوطن الأحباب يصبو لها القلب

ان القرافة من المجالس التى لفتت اليها الأنظار . فقد عرف عنها بأسرها روضات بديعة الاتقان عجيبة البنيان (٧١) . وفى شرقيها منازل الأعيان بالفسطاط والقاهرة ، وقبور عليها مبان معتنى بها ، ولا تكاد

---

(٧٠) الخطط : ج ٢ ص ٤٤٤ .
(٧١) رحلة ابن جبير : ص ٢٠ .

تخلو من طرب ولا سيما فى الليالى المقمرة ، وهى معظم مجتمعات أهل مصر واشهر منتزهاتهم ، وقد دفن فيها الملك الكامل ابنه فى سنة ٦٠٨ هـ بجوار قبر الامام الشافعى وبنى القبة العظيمة عليه وأجرى لها الماء من بركة الحبش بقناطر متصلة(٧٢) .

ولم تكن كل المجالس فى المجتمع المصرى لاهية صاخبة ، وانما كان منها ما يجرى فيه اللقاءات الأدبية والمفاكهات والمحاورات التى يروق سماعها ، وقد أشار الى ذلك العماد حين نزل القاهرة ونعم بالحياة فيها يبين أنه قد توفرت له المجالس التى يجد فيها فرصة اللهو ومعها فرصة التأدب والمتعة الفكرية ، يقول :

« وتوفرنا على الاجتماع فى المغانى لاستماع الأغانى والتنزه فى الجزيرة والجيزة والأماكن العزيزة ، ومنازل العز والروضة ودار الملك والنيل والمقياس ومرامى السفن ومجارى الفلك والقصور بالقرافة وربوع الضيافة ورواية الأحاديث النبوية والمباحثة فى المسائل الفقهية والمعانى الأدبية » (٧٣) . ويقول ابن خلكان مصورا ذلك الجانب الشامل من جوانب المتعة اللاهية والجادة :

(اجتمع فى عصر ابن سناء الملك جماعة من الشعراء المجيدين ، وكان لهم مجالس يجرى بينهم فيها مفاكهات ومحاورات يروق سماعها، ودخل فى ذلك الوقت الى مصر شرف الدين ابن عنين فاحتفلوا به وعملوا له دعوات وكانوا يجتمعون على أرغد عيش) (٧٤) .

ان الصورة التى أوضحتها أوصاف العماد الكاتب لمجالسه ، وكذلك ما كان من اجتماع أهل الأدب فى مصر مع وافدهم من الشام تبين

(٧٢) الخطط : جـ ٢ ص ٤٤٤ .
(٧٣) الروضتين : جـ ١ ص ٢٦٧ .
(٧٤) وفيات الأعيان : جـ ٦ ص ٦٢ .

الجوانب المتعددة والأماكن التى كانت تجمع الرفاق ، ونوع هـــذه اللقاءات وتنوعها . وأن المجتمع المصرى يحوى ألوان الحياة المترفة ولكنها ليست بعيدة عن الفكر والثقافة التى تعددت أيضا مجالســها فكانت مرة فى الجوامع أو عند بعض الرؤساء أو فى البساتين .. ونجد فى كتاب بدائع البدائة لعلى بن مظفر أمثلة كثيرة ، منها ما يقوله من أنه اجتمع مع صحبه ليلة فى رمضان بالجامع فى مصر ، ثم جلســوا بعد انقضاء الصلاة للحديث ثم بدأوا القول ونظم الشعر ونقــده . ويذكر مثالا آخر لاجتماع جماعة من الأدباء أهل الاسكندرية فى بستان لبعض أهلها(٧٦) . وقــد يكون هــذا اللقاء فى ديوان الانشاء .. ذلك المعهد الذى لا يحوى الا الأدباء ومن يسعون الى الدرجات العلى بحسن الانشاء والكتابة والذوق والحس الأدبى ومن أمثلة ذلك ما ذكره ابن سناء الملك فقال : تذاكرنا فى بعض الأيام بديوان الانشاء فأفضى بنا الحديث الى ذكر الناشىء الأصغر وقوله فى وردة :

وورده فى بنـــان معطـــار حبـا بهـا فى خفى اســـرار

كأنهـا وجنـة الحبيب وقــد نقطهـا عاشـق بدينـــار

ويمتد القول بين الأدباء على نقد هذه الأبيات ، ويتداولون القول فى تصويب ما يرونه خطأ(٧٧) .

وفى البيئة المصرية ومجتمع الأيوبيين نعم الحكام بحياة رغــدة وعيش خفض ، ورغم ما تميزت به دولتهم بأنها كانت دولة محاربة ، فانه يقال ان الملك العادل أبا بكر كان فى الغالب يقضى الصــيف فى

---

(٧٥) بدائع البدائة : ص ٢٧٢ .

(٧٦) المرجع السابق : ص ٢٤٧ .

(٧٧) بدائع البدائة : ص ١٠٨ ، وانظر الناحية الادبية فى هذا البحث .

الشـــام لأجل الفواكه والثلج والمياه الباردة ويشتى بالديار المصرية لاعتدال الوقت فيها وقلة البرد وعاش فى أرغد عيش [٧٨] ٠

وكان من وسائل التسلية التى استخدمها كثير من المصريين وسيلة الصيد وشغف بها الملوك والسلاطين وقد عرف عن الملك العزيز عثمان أنه كان يحب الصيد وذكر فى سبب وفاته أنه خرج يوما الى الفيوم يتصيد ورأى ظبيا فركض فرسه خلفه فكبا به الفرس فدخل السرج فى فؤاده وحمل الى القاهرة وتوفى سنة ٥٩٥ هـ [٧٩] ٠ ومن أهمية الصيد عند سلاطين العصر الأيوبى أنهم فى غمرة مشكلاتهم ومواجهتهم للاخطار لا يتركون فرصته ، فمما يحكيه العماد قوله : (٠٠ وخرج السلطان الى مرج فاقوس من أعمال مصر الشرقية لأرهـاب العـدو وهـو يركب للصيد والقنص والتطلع الى أخبار الفـرنج لانتهـاز الفـرص) [٨٠] ٠

ولكن لم تكن الحياة الاجتماعية فى مصر فى هذه الفترة قاصرة على جانب المتعة والفن والجمال وحدها ، وانما كان هناك جانب آخـر مقابل لهذا الجانب الرفه فقد وضح فى هذا المجتمع الجانبان المتقابلان، جانب السـعة والرخاء ، وجانب الفقر والعوز ٠ وهـذه طبيعـة كل المجتمعات ، فدائما يوجد طبقة الحكام والملوك والأمراء ومن يحيا فى رحابهم ، فهؤلاء لهم الحيـاة الزاهية المشرقة ، وهـؤلاء فى مصـر يسكنون القصور ويبنون المناظـر على النيل ثم هناك الطبقة الثانية التى تأثرت بكل ما صادف المجتمع المصرى من سوء أحوال أو ما وقـع على البلاد من أعباء ، ويدخل ضمن هذه الطبقة ما يكون من تجـار وفلاحين ، وهؤلاء هم الذين يكون عليهم عماد الحياة والمعيشة ، فهم

---

(٧٨) وفيات الأعيان : جـ ٥ ص ٧٨ ٠
(٧٩) المرجع السابق : جـ ٦ ص ١٢٨ ٠
(٨٠) الروضتين : جـ ١ ص ٦٩٢ ٠

الذين يزرعون ويتاجرون وعليهم يقوم عبء اقتصاد البلاد . ان هذه الطبقة وهى غالبية أهل البلاد كانت تعانى من مشـــقة الحياة . ويرجع هذا الى أسباب كثيرة منها :

١ — ما يكون نتيجة للكوارث الطبيعية التي صادفتها مصر فى هذه الفترة ، مثل انخفاض نهر النيل وما ينتاب البلاد من مجاعات ، وقد حدث فى سنة ٥٧٧ هأن أشتد الغلاء، وذلك أن النيل احترق حتى صار يخاض ، وتشمر المـــاء عن ساحل المقس ومصر وربث جزائر رملة خيف منها على المقياس أن يتقلص الماء عنه ويحتاج الى عمل غيره[٨١]. وفى سنة ٥٩٢ ه كثرت الطرحى من الأموات على الطرقات وزادت عدتهم بمصر والقاهرة ، ولجأ الناس الى استقاء المـــاء من البحر فى الجرار يبيعونها ، واذا لم يجدوا من يشتريها طلبوا التصدق بثمنها . وامتدت الأيدى الى خطف الخبز وشوهد من يستف التراب . وكثرت الأموات بالاسكندرية أيضا [٨٢] .

ومن أقسى الأزمات لانخفاض النيل ما كان فى سنة ٥٩٦ ه فقد قصر النيل تقصيرا عظيما ، وكما يقول ابن واصل كان ذلك سببا فى الغـــلاء المفرط فى السنة القابلة [٨٣] وقد أشار الى هذه الفترة كثير من المؤرخين ووصفوا الحال التى آل اليها أهل البلاد . فيقـــول ابن تعزى بردى : (فى سنة ٥٩٧ ه كان هبوط النيل ولم يبق منه الا شىء يسير ، واشتد الغلاء والوباء ،فهرب الناس الى المغرب والحجـــاز واليمن والشام وتمزقوا كل ممزق . كما كانت مراكب الافرنج واقفة على ســاحل البحر كالرخم تسترق الجياع باللقم)[٨٤] . واستمرت

---

(٨١) السلوك : جـ ١ قسم ١ ص ٧١ .
(٨٢) المرجع السابق : ص ١٣٠ ، ١٣٢ .
(٨٣) مفرج الكروب : جـ ٣ ص ١١٥ .
(٨٤) النجوم الزاهرة : جـ ٦ ص ١٧٣ .

هذه الكارثة ثلاث سنوات وكان أصعبها وأشدها ما كان سنة ٥٩٧ هـ حتى عدمت الأقوات وأكلت الكلاب وأدى ذلك الى انتشار القحط ، وخلت مدينة القاهرة ومصر من أهلها . وزاد الطين بلة أن أكلت الدودة ما زرع فلم يوجد شىء من التقاوى وكان أهل القرى تخرج للحرث فيموت الرجل وهو ماسك بالمحراث [٨٥] . وفى سنة ٥٩٩ هـ يزيل الله الغمة فقد زاد النيل بكثرة ورخصت تبعا لذلك الأسعار[٨٦] .

ومن الكوارث الطبيعية أيضا ما أصاب مصر من زلزلة هائلة من الصعيد فى سنة ٥٩٧ هـ حيث هدمت البنيان ومات تحت الهدم خلق كثير[٨٧] . وتتكرر كارثة الزلزال فى سنة ٦٠٨ هـ وكانت شديدة هدمت عدة دور فى القاهرة ومصر [٨٨] .

٢ — ومن أسباب سوء الحياة فى البلاد وصعوبة اقتصادها ، ما كان يقع على أهالى البلاد من صعوبة تقدير الضرائب والمكوس ، وقد أوضح ابن جبير ذلك الأمر وما لسة من تعنت فى سوء المعاملة ومقاضاة المسلمين وجوب دفع الزكاة على كل من يصل الى البلاد . ويصف ذلك الموقف حين وصل الى الاسكندرية سنة ٥٧٨ هـ وكيف أن أمناء المركب من قبل السلطان قاموا بتفتيش القادمين وأدخلوا أيديهم فى أوساطهم، ثم استحلفوهم بعد ذلك عما اذا كانوا يحملون غير ما وجد لديهم أم لا، وان المسافرين أطلقوا بعد موقف — يقول عنه ابن جبير — من الذل والخزى عظيم) . وكانت هذه المعاملة السيئة تشمل مدن مصر كلها ، فابن جبير يقول أيضا : (وببلاد هذا الصعيد المعترضة فى الطريق للحجاج والمسافرين باخميم وقوص ومنية ابن الخصيب من التعرض

---

(٨٥) السلوك : جـ ١ ص ١٥٦ ، ص ١٥٨ .
(٨٦) المرجع السابق : جـ ١ ص ٢٠٥ .
(٨٧) النجوم الزاهرة : جـ ٦ ص ١٧٤ .
(٨٨) السلوك : جـ ١ ص ١٧٥ .

لمراكب المسافرين وتكشيفها والبحث عنها وادخال الأيدى الى أوساط التجار فحصا عما تأبطوه أو احتضنوه من دراهم ودنانير مما يقبح سماعه ، لقد نهى الله عن التجسس فكيف من الكشف لما يرجى ستر الصون دونه من حال لا يريد صاحبها أن يطلع عليها . والله الآخذ على أيدى هؤلاء الظلمة بيد هذا السلطان العادل)[٨٩] . وتلك الصورة تبين كيف ان البلاد كانت تعانى من سوء الاقتصاد وسوء المعاملة فى الداخل وللقادم .. فقد كان من لم يؤد المكس من الحجاج يمنع من الحج[٩٠] .

ولقد كان الحكام فى أحيان كثيرة ينتبهون الى فداحة تقدير الضرائب وسوء تصرف جباتها فيلجأ الى تخفيضها وازالة شكوى الناس ، ويلتمس ذلك ابن جبير ويتوسم فى السلطان صلاح الدين حيث يقول : (وهذه لا محالة من الأمور الملبس فيها على السلطان الكبير صلاح الدين ، ولو علم بذلك على ما يوصف عنه من العدل وايثار الرفق لأزال ذلك)[٩١] .

ويبدو أن هذه الأمور لم تدم فى هذا المجتمع فى عهد صلاح الدين فقد جاء منشور منه أراد فيه التسهيل للتجار فى القاهرة ومصر جاء فيه : (وخرج أمرنا بكتب هذا المنشور بمسامحة أهل القاهرة ومصر وجميع التجار المترددين اليها والى ساحل المقس والمنية بأبواب المكوس صادرها وواردها ، فيرد التاجر ويستجلب ويغيب عن حالة ويحضر ويتجر برا وبحرا وسرا وجهرا ولا يكشف ما ستره ولا يسأل عما أورده وأصدره)[٩٢] .

---

(٨٩) المرجع السابق : ص ١٤ ، وكان ذلك فى عهد الملك الناصر صلاح الدين .

(٩٠) السلوك : جـ ١ قسم ١ ص ٦٣ .

(٩١) رحلة ابن جبير : ص ١٤ .

(٩٢) الروضتين : جـ ١ ص ٤٤٩ .

ولقد عادت المعاناة من هـذا الأمر فى عهـد العزيز عثمـان بن صلاح الدين ، وعاد الناس الى التذمر ، ويصور ذلك الشاعر ابن عنين حين جاء الى مصر فى تلك الفترة وطلب منه زكاة ما ورد معه ، فلم يملك نفسه من أن يعترض ووجه اللوم الى السلطان فى شعر قـال فيـه (٩٣) :

ما كل من يتسمى بالعزيز لهـا   أهل ولا كل برق سحبه غدقة
بين العزيزين بـون فى فعالهمـا   هذاك يعطى وهذا يأخـذ الصدقة

٣ — من أسباب سوء الحياة فى مصر ما كان أيضا من هجمات الفرنج على مصر ، وكيف أن كل الجهود كشفت لمقاومتها مما كان له أثره على حالة البلاد ، ولأمثلة كثيرة فلا زلنا نذكر ما سبق قوله فى تصوير الحياة السياسية وانهم فى صراعهم مع وزير الفاطمين الذى استنجد بالأيوبيين ثم غدر بهم وأنه فى هذا الصراع أحرق مدينة مصر وأمر أهلها بالانتقال الى القاهرة ، وانتهى الأمر بأن نهبت المدينة وافتقر أهلها وذهبت أموالهم (٩٤) . وكان أصعب الأمور على أهل مصـر ما كان من غزو الفرنج لدمياط سنة ٦١٥ هـ واستمر ذلك ثلاث سنوات واساء الفرنج الى المصريين ، وصبر أهل دمياط وتحملوا ما كان فيهم من القتل والموت والأمراض وأكلوا الميتات (٩٥) وازداد الأمر سـوءاً حين أقام العرب على اختلاف قبائلهم ونهبوا البلاد المجاورة لدمياط وقطعوا الطريق وبالغوا فى الافساد فكانوا أشد على المسـلمين من الفـرنج (٩٦) .

---

(٩٣) ديوان ابن عنين : ص ٢٢٣ ، والمقصود بالعزيزيـن : الملك العزيز طغتكين بن أيوب صاحب اليمن أخو صلاح الدين المتوفى سنة ٥٩٣هـ والملك العزيز عثمان بن صلاح الدين صاحب مصر وتوفى سنة ٥٩٥ هـ .

(٩٤) الكامل ابن الاثير : جـ ٩ ص ١٠٠ .

(٩٥) النجوم الزاهرة : جـ ٦ ص ٢٣٨ .

(٩٦) السلوك : جـ ١ قسم ١ ص ٣١٦ .

ان مثل هذه الأحداث تعطينا صورة عن جانب كبير فى مصر تعرض للمعاناة وسوء الحال ، وقد كان لذلك تأثيره على نفوس كثير من الناس فى هذا العصر اذ تفشى فى البعض منهم سوء الخلق وخشونة الطباع ، كذلك أنتشرت الرشوة والسرقة ، وأفصح المجتمع المصرى عن هـذا الجانب المقابل لجانب الترف والنعيم الذى عاشته فئة أخرى فى هـذا المجتمع •

ـ الحياة الدينيـة :

ان الحديث عن المجتمع فى مصر فى العصر الأيوبى يجعلنا نتجه أيضـا الى الكلام عن الناحية الدينية خاصة أننـا نلمس أنها ترتبط ارتباطا وثيقا بكل الجوانب فى هذه الفترة ، فاذا ربطنا بينها وبين قيام الدولة الأيوبية سنجد أن أهم مظهر لهـا هو الاتجاه السنى الـذى سـاد المجتمع الأيوبى وبعـد به عن المذهب الشيعى الذى فرضـته الدولة الفاطمية من قبل وقاومه المصريون ورفضوا أن تقوم هذه العقيدة أو أن تسود مجتمعهم ، واتجه الأيوبيون الى نشر المذهب الشافعى وكثرت المدارس التى تدرس هذا المذهب •

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، فان للحياة السياسية أيضـا أثرها فى تهيئة النفوس الى التقرب الى الله • وكان الغزو الصليبى مدعاة الى الارتباط بتعاليم الدين خاصة أنهم عدوا تلك الهجمات هدفها الأول السيطرة على الدين الاسلامى ، فكان لذلك أثره فى الاهتمـام بالمجالس الدينية وبناء المساجد والربط وبناء الخوانق وبنـاء الزوايا للمتصوفة • وقد أنشأ صلاح الدين أول خانقاه للصوفية سنة ٥٦٩ هـ ورتب فيه طعامهم وشرابهم ليتفرغوا لعبادة الله تعالى [٩٧] وقد جعلها

---

(٩٧) الخطط : جـ ٢ ص ٤١٤ •

صلاح الدين للغرباء الواردة من البلاد الشاسعة ووقفها عليهم وولى عليهم شيخا ووقف عليهم بستان الحيانية بجوار بركة الفيل خارج القاهرة . فكانت أول خانقاه بمصر وسمى شيخها « شيخ الشيوخ »(٩٨) .

وكثرت المدارس التى جعل لها صلاح الدين وقفا .. فهناك أيضا دار عباس التى جعلها مدرسة للحنفية وجعل عليها وقفا جيدا، ومدرسة زين التجار وقفها للشافعية ووقفه جيد .. كذلك مدرسة للمالكية (٩٩) .

وكان لعلماء الدين دورهم الكبير فى حفز الهمم لمواجهة الخطر الصليبى والدفاع عن البلاد ، وان من صور ذلك ان صلاح الدين كان يخوض المعارك ومعه جماعة من القراء والعلماء والصلحاء وهم يحفزون الهمم بتلاوة القرآن الكريم ويحذرون من الفرار ويذكرون الجنود بما أعد الله من ثواب للشهداء فى الجنة ، وكذلك كان رواة للحديث يحدثون المقاتلين بالأحاديث النبوية الشريفة ويشجعونهم أثناء القتال (١٠٠) .

كما أن تلك الناحية الدينية واتجاه البعض الى التصوف يعد رد فعل لما وجد فى المجتمع المصرى من فساد ، ومن أشهر أقطاب الصوفية في مصر فى تلك الفترة من الشعراء : ابن الفارض والبوصيرى وابن دقيق العيد .

تلك صورة عامة لجوانب الحياة الاجتماعية فى مصر فى العصر

---

(٩٨) المرجع السابق : ص ٤١٥ .

(٩٩) وفيات الأعيان : جـ ٧ ص ٢٠٦ .

(١٠٠) دراسات فى تاريخ الحروب الصليبية : د / عفاف صبرة ص ٣٩ .

الأيوبى التى كان لها صداها فى شعر الوصف حيث استطاع الشعراء أن يبرزوها فى أدق تصوير اثبت انهم ينظرون الى المجتمع بعين فاحصة مدركة لكل ما تقع عليه من ملامح ومظاهر •

ثالثا : الناحيــة الفكرية والثقافية :

ازدهــرت الناحيــة الفكرية فى مصر فى العصر الأيوبى ازدهارا كبيرا ، وزاد فيه نشاط العلماء والأدباء بصورة شهد بها الجميــع ،

ومنذ قيام الدولة الأيوبية وعلى مدى حكم الأيوبيين عاشت مصر نهضة علمية قوية كان من ملامحها كثرة الأدباء والعلماء ، ووضح ذلك فى كثرة ما ألف من تراث فكرى ظل كثير منه حتى زماننا هذا يشهد بتلك النهضة العظيمة • وكان من أسباب تلك النهضة :

١ ــ أن الدولة الأيوبية حين قامت فى مصر وقضت على الدولة الفاطمية ورثت عنها ما اشتهرت به تلك الدولة المنقرضة من ازدهــار فى الناحية الفكرية خاصة أن الحكام فيها قد جمعوا حولهم الشعراء والكتاب وقصدوا من ذلك أن يكونوا دعــاة لهم ولمذهبهم ويذلوا لهم العطاء الوافــر • فخلف شعراؤهم تراثا ضخما ومما يدل على عظمته أن صلاح الدين بعد القضــاء على الخلافة الفاطمية أطلق البيع فى كل جديد وعتيق ، ومن جملة ما باعوا خزانة الكتب وكانت من عجائب الدنيا فلم يكن فى جميع بلاد الاسلام دار كتب أعظم من الدار التى بالقاهــرة فى العصر ، ومن عجائبها أن كان بها ألفا ومائتان وعشرون نسخة من تاريخ الطبرى وحده ، وحصل للقاضى الفاضل عدد كبير منها حيث شغف بحبها [١٠١] • كما جمع العماد الأصبهانى حين جــاء الى

---

(١٠١) الــروضتين : حـ ١ ص ٥٠٣ •

مصر واتصل بعلمائها كتبا كثيرة من مكتبة العصر الفاطمى نقل منها الى الشام ثمانية أجمال (١٠٢) .

٢ — كان الحكام الأيوبيون حريصين على نشر الفكر السنى بعد احياء الخلافة العباسية وانطواء مصر تحت جناحها فى أول حكم الأيوبيين فاهتموا ببناء المدارس ورعاية المساجد التى هى أيضا مجالس علم ، فقد اهتموا بجامع ابن طولون والجامع الأزهر .. ويقول ابن جبير « فى جامع ابن طولون بين مصر والقاهرة جعل السلطان مأوى للغرباء من المغاربة يسكنونه ويعقدون فيه حلقات الدرس » (١٠٣) .

ومرة ثانية يقول : (ومن مناقب هذا البلد ومفاخره العائدة فى الحقيقة الى سلطانه « المدارس والمحارس » الموضوعة فيه لأهل الطب والتعبد ، يغدون من الأقطار النائية فيلقى كل واحد منهم مسكنا يأوى اليه ومدرسا يعلمه الفن الذى يريد ، واجراء يقوم به فى جميع أحواله) (١٠٤) .

فاهتمام صلاح الدين بنشر المذهب السنى جعله يزيد اهتمامه بما كان موجودا فى مصر من مساجد ، وزاد اهتمامه أكثر ببناء المدارس على نحو ما ذكر فى الناحية الاجتماعية .. وكان كثيرا ما يذهب الى مراكز العلم والدين ، فكان يذهب الى مدرسة السلفى فى الاسكندرية لسماع الحديث وكانت تلك المدينة مركزا كبيرا من مراكز أهل السنة لذا فقد ساعد أهلها الأيوبيين فى مناهضة الدولة الفاطمية . ومما يذكره العماد الكاتب . (انه فى سنة ٥٧٢ أستصحب صلاح الدين ولديه الأفضل عليا والعزيز عثمان وجعل طريقه على دمياط ، ثم وصلنا

---

(١٠٢) المرجع السابق : جـ ١ ص ٢٠٠ .

(١٠٣) رحلة ابن جبير : ص ٢٦ .

(١٠٤) رحلة ابن جبير : ص ٢٥ ، والاجراء : المرتب .

الى ثغر الاسكندرية وترددنا مع السلطان الى الشيخ الحافظ أبى طاهر أحمد السلفى وداومنا الحضور عنده واجتلينا من وجهه نور الايمان وسعده) [١٠٥] كما أن الملك الكامل كان يعظم أهل السنة ويسعى الى الاجتماع بالعلماء .

ولقد سار خلفاء صلاح الدين على دربه فى بناء المدارس ، فمن ذلك أيضا المدرسة الكاملية الى بناها الملك الكامل محمد سنة ٦٢١هـ [١٠٦] ورتبا لها وقفا جيدا [١٠٧] والمدرسة الصالحية التى بناها الملك الصالح نجم الدين أيوب سنة ٦٣٩ هـ [١٠٨] . وهناك من المدارس ما بناه أصحاب الفكر والكتاب ، كالمدرسة الفاضلية التى بناها القاضى الفاضل سنة ٥٨٠ هـ والحق بها مكتبة قيمة لعلها تلك التى اشتراها من قصور الفاطميين .

ولقد عمت المدارس أنحاء مصر ، فنجد أيضا فى مدينة قوص المدرسة النجيبية التى بناها النجيب بن هبة الله القوصى سنة ٦٠٧ هـ [١٠٩] .

ان انتشار هذه المدارس وكثرتها فى مصر علامة واضحة وعنصر بارز على انتشار الفكر والثقافة وينمى جوانب العلم فى كل مجالاته، خاصة حين ندرك أنه لم تكن تدرس فيها العلوم الدينية فحسب وانما كانت تدرس العلوم النحوية والأدبية والفلكية وعلم العروض . فقد كانت هذه المدارس جامعة بصورتها التى ندركها الآن ، وهذا

---

(١٠٥) الروضتين : جـ ١ ص ٦٨٩ .

(١٠٦) حسن المحاضرة : جـ ٢ ص ١٨٨ .

(١٠٧) وفيات الأعيان : جـ ٥ ص ٨١ .

(١٠٨) حسن المحاضرة : جـ ٢ ص ١٨٨ .

(١٠٩) الطامع السعيد الادفوى : ص ٢٣٠ .

ما وجد فى المدرسة الصالحية التى بناها النجم الصالح نجم الدين أيوب فقد كانت أقرب الى الجامعة اذ كانت بها ما يكون أربع كليات، يدرس فى كل واحدة منها مذهب من مذاهب السنة ، وقد أشاد بهـا شعراء مصر الذين أحسوا اهتمام الدولة ببناء المـدارس .. فقـال الجـزار :

ألا هكذا يبنى المدارس من بنى ‏ ‏ ‏ ومن يتغالى فى الثواب وفى البنا

وأما السراج الوراق فهو لا ينسى حين يذكر هذه المدرسة أن يقارن بينها وبين المدرسة النظامية التى بناها نظام الملك فى بغداد واشاد بها الشعراء أيضا ، فيقول مشيدا بالمدرسة الصالحية [١١٠] :

مليك له فى العلـم حب وأهلـه ‏ ‏ ‏ فللـه حـب ليس فيـه مـلام

يشيدهـا للعلـم مدرسـة غـدا ‏ ‏ ‏ عراق لهـا اذ تنسـبون وشـام

ولا تذكرن يوما نظاميـــة لهـا ‏ ‏ ‏ فليس يضاهى ذا النظام نظـام

٣ ــ من عوامل ازدهار الناحية الأدبية ان الظروف التى عاشتها مصر فى العصر الأيوبى ساعدت على أن تكون مصر قبلة الشـــعراء والكتاب الذين اهتموا بتصوير الأحداث التى مرت بها البلاد ، فالأدباء لهم دورهم وعليهم يقوم العبء الأكبر فى وصف الحياة العـــامة واستطاعوا بكل ما أوتوا من بلاغة القـول تصـوير الأحـداث ، بل والمشاركة فيها ، فكانوا مع حملة السلاح فى مواجهة الحروب والمعارك التى عاشتها البلاد يحاربون بالكلمة ويعلنون النصر ويأســون للهزيمة. ان كتاباتهم وأشعارهم تعـد وثيقة كاملة يعتمد عليها فى تصـوير تلك الفترة فى العصر الأيوبى .

---

(١١٠) حسن المحاضرة : ص ١٤٢ .

ومن طبيعة الحكام أنهم يتخذون من بعض الكتاب كتابا لرسائلهم الديوانية ومنشوراتهم وكان من أبرز كتاب مصر فى هذا المجال القاضى الفاضل والبهاء زهير والعماد الكاتب(١١١) .

والتف الشعراء أيضا حول ملوك العصر الأيوبى ، وقد أطلقت فتوحاتهم وانتصاراتهم ألسنة الشعراء فى مصر وغيرها ، وكانت انتصارات صلاح الدين تشد الشعراء الذين لم يبق منهم شاعر نابه الا قصده مادحا (١١٢) . وكانت حروب الشام تهز شعراء مصر ، وحروب مصر تثير حماس الشعراء فى كل مكان . فمثلا فى انتصار صلاح الدين فى موقعة حطين يقول ابن الساعاتى المصرى :

جلت عزماتك الفتح المبينا فقد قرت عيون المؤمنينا

ويقول العماد :

حططت على حطين قدر ملوكهم
ولم تبق من أجناس كفرهم جنسا

بطون ذئاب الأرض صارت قبورهم
ولم ترض أرض أن تكون لهم رمسا (١١٣)

ولم يكن الحكام يبخلون على الأدباء بعطاء فقد قدم أحد الشعراء على صلاح الدين وأنشده :

الله أكبر جاء القوس باريها ورام أسهم دين الله راميها

فأعطاه السلطان هبة مقدارها ألف دينار (١١٤) . كما أن الشعراء قد أشادوا بانتصار الملك الكامل فى دمياط واجتمعوا حوله من كل

---

(١١١) راجع ص ، ص
(١١٢) وفيات الأعيان : ج ٧ ص ٢١١ .
(١١٣) النجوم الزاهرة : ج ٦ ص ٨ .
(١١٤) وفيات الأعيان : ج ٧ ص ٢١١ .

مكان •• من مصر والشام والعراق ، ويكفى أن نرى قول البهاء زهير :

وما فرحت مصر بذا الفتح وحدها   لقد فرحت بغـداد أكثر من مصر

حتى ندرك أن مثل هذه الانتصارات كانت تعم البلاد الاسلامية وان مصر كانت تجذب بالتالى الشعراء بأحاسيسهم ومشاعرهم فيترجمونها شعرا • ومن أبرز من وفد من الشعراء الى مصر الشاعر علم الدين الشاتانى فى سنة ٥٧٢ هـ وهو من أدباء الموصل وشعرائها وفصحائها •• وأهدى النظم والنثر) [١١٥] • كذلك الشاعر ابن عنين الدمشقى وقد أدلى بدلوه فى التهنئة بانتصارات دمياط فى عهد الملك الكامل •

٤ ــ ونستطيع أن نقول ان من عوامل ازدهار الأدب فى مصر فى عصر الأيوبين ما كان من وجود « ديوان الانشاء » الذى كان بمثابة معهد علمى يتخرج فيه من يريد ان يشتغل منصبا من مناصبه ، فيلتحق به من ينال ثقافة تعينه على مواصلة السير حتى يتقن الكتابة ، وكان وسيلة طالب هذا ان يأخذ بحظ وافر من الثقافة وان يكون ملما بعلوم الأدب وهى اللغة والصرف والبلاغة والعروض والقوافى، ومن أبرز كتاب ديوان الانشاء : القاضى الفاضل والعماد الكاتب والبهاء زهير وابن لقمان • وكان صاحب الديوان معظما عند الملوك فى كل زمن، يلقون اليه اسرارهم ويخصونه بخفايا أمورهم ويطلعونه على ما لم يطلع عليه أخص الأخصاء من الوزراء والأهل والولد [١١٦] •

٥ ــ من عوامل ازدهار الأدب فى مصر فى هذا العصر ميل الحكام أنفسهم الى الأدب والعلم واحساسهم بأهمية الفكر والاتجاه اليه والسعى نحوه ، ويقول العماد عن السلطان صلاح الدين « لقد اتصلت

---

(١١٥) الروضتين : جـ ١ ص ٦٩٦ •
(١١٦) صبح الأعشى : جـ ١ ص ١٠١ •

بينى وبينه مودة ولم يزل يستهدينى نظمى ونثرى ويشعرنى أنـــه يميل الى شعرى » [١١٧] • وعلى ما كان من كثرة مشاغله فى هــذه المملكة الواسعة وما فيها من اندماج فى عالم المعارك والحروب كان يستهويه الأدب ويستحسن الاشعار الجيدة ويرددها فى مجالسه •• وكان قوى الاعجاب بشعر أسامة بن منقذ مشغوفا بقراءة ديوانه ، وكان يتأثر بقول ابن المنجم [١١٨] فى الشيب :

وما خضب الناس البياض لقبحـــه   وأقبح منه حين يظهـــر ناصـــله
ولكنه مات الشـــــباب فســـودت   على الرسم من حـــزن عليه منازله

فكان يمسك لحيته ويقول : (أى والله مات الشباب) [١١٩] ، ويستبد به الحنين والشوق الذى يمس النفس والقلب وذكر أنه فى أول ملكه كتب الى بعض أصحابه فى دمشق [١٢٠] •

أيهـــا الغائبون عنـــا وان كنــ   ــتم لقلبى بذكـــركم جـــــيرانا
انى مــذ فقـــدتكم لأراكم   بعيـــون الضـــمير عنـــدى عيانـــا

وكان الشعراء لاحساسهم بتذوقه للادب ورغبته فى الاستزادة منه يرسلون اليه بأشعارهم مثلما فعل سبط ابن التعاويذى حين أرسل اليه قصيدتين من شعره [١٢١] •

---

(١١٧) الروضتين : جـ ١ ص ٣٧٢ •

(١١٨) من شعراء مصر ولد سنة ٥٤٩هـ وتوفى سنة ٦٢٠هـ ، قال عنه العماد : قبل عنه بمصر شاب مبرز فى الشعر مجيد له بديهة مليحة وفكرة صحيحة وذكاء وقريحة ، خريدة القصر جـ ١ ص ٥٤ قسم شعراء مصر •

(١١٩) وفيات الأعيان : جـ ٧ ص ٢٠٨ ، والنجوم الزاهرة : جـ ٦ ص ٥٦ •

(١٢٠) المرجع السابق : جـ ٧ ص ٢٠٨ •

(١٢١) وفيات الأعيان : جـ ٧ ص ٢٠٨ •

ومن حكام مصر أيضـــا الملك الأفضل الذى عرف عنه (انه كان فاضلا متأدبا ينظم الشعر الجيد) (١٢٢) • ومن شعره قوله :

قل لمن فى العــذار أطنب جهــلا - ويبـــاهى فى وصـــفه ويغـــــالى
لم يكن فى الجنان يفقد فى الـــ وردان لو كان من صفات الجمال (١٢٣)

وكان يعبر عن محنته فى احساسه بأن أخاه العزيز عثمان وعمه العادل أبا بكر قد اغتصبا حقه فى ملك مصر ، فمن شعره فى هذا :

أما آن للسعد الذى أنـــا طـــالب لادراكه يومـــا يرى وهو طـــالبى
ترى هل يرينى الدهر أيدى شيعتى تمكن يوما نواصى النواصب (١٢٤)

وعرض الملك الأفضل على العماد الكاتب أبياتا تصـــور الحنـــين والتشوق الى أخيه الملك العزيز عثمان رغم ما بينهما من جفوة ، وأن فراقا دام بينهما تسع سنين ولم يلتقيا الا على الخلاف فكتب يقول :

نظـــرتك نظـــرة من بعـــد تســـع تغضـــت بالتفـــرق من سنين
وغض الدهـــر عنهـــا طرف غـــدر مســـافة قرب طـــرف من جبـــين
وعـــاد الى ســـجيته فأجـــرى بفرقتنـــا العيون من العيـــون
فـــويح الدهـــر لم يسمح بوصل يعيـــد بهـــا الهجوع الى الجفون
فـــراقا ثـــم يعقبـــه ببـــين يعيد الى الحشا عـــدم السكون
ولا يـــدعى محلـــى منـــك الا اذا دارت رحى الحرب الزبون

---

(١٢٢) مفرج الكروب : جـ ٣ ص ٣٨ •

(١٢٣) فوات الوفيات : جـ ٢ ص ٣٤٦ •

(١٢٤) السلوك : جـ ١ ص ١٤٦ •

وينصحه العماد بأن يرسل هذه الأبيات الى أخيه حتى يزول مـا بينهما من خلاف .. اذ عبرت عن معنى الاستعطاف والتودد [١٢٥] .

وتتواصل النزعة الأدبية فى بقية الأيوبيين فى مصر فنجد منهم أيضـا الملك الكامل الذى عرف عنه أنه كان محبا للعلماء متمسكا بالسنة النبوية معاشرا لأرباب الفضائل وكان يبيت عنده كل ليلـة جمعـة جماعة من الفضلاء ويشاركهم فى مباحثاتهم وهـو معهـم كواحـد منهم [١٢٦] . وكان ذا باع كبير فى نظم الشعر ويدل شعره على مقدرة كبيرة وتمكن فى اللغة ، وهو امـا ناظم لأبيـات الشـعر من مثـل قـوله [١٢٧] .

اذا تحققتم ما عنـد صـاحبكم من الغرام فذاك القـدر يكفيـه
انتم سكنتم فؤادى وهو منزلكم وصاحب البيت أدرى بالذى فيـه

واما منشد لشعر غيره فتحس فيه صدق الاحساس بما ينشـده مثلما كان يقول فى مرضه [١٢٨] .

يا خليلى خبـرانى بصـدق كيف طعـم الكـرى فانى عليـل

وعرف عنه حبه لما يكون من مبارزة للفكر واستحداث المعانى ، وكيف أنه يتميز بملكه حفظ عالية للشعر ، فمما يذكر أنه فى أحـد مجالسه مع الأدباء أنشد قول الشاعر :

تـرحل من حيـاتى فى يـديه فيا أسـفى ويا شـوقى اليـه

---

(١٢٥) مفرج الكروب : جـ ٣ ص ٣٨ .
(١٢٦) وفيات الأعيان : جـ ٥ ص ٨١ .
(١٢٧) السـلوك : جـ ١ ص ٢٦١ .
(١٢٨) وفيات الأعيان : جـ ٥ ص ٨١ ، ومن شعره ايضا ما ارسله الى اخيه الملك الاشرف يستغيثه فى حرب دمياط سنة ٦١٨ هـ .

واستجاز من معه فقال أحدهم :

ومن هذا يكــون عليــه مثلـــى   وهذى الــريح أخشــاها عليــه

ثم قال آخر :

ألا ليتـــه ان كـــان يأتـــى   حياتى ثـم موتى فى يديه [١٢٩]

ومن أمثلة ما يبين لنا ما كان عليه ملوك بنى أيوب من حفظ للتراث ما كان من الملك العزيز عثمان حين غنى بين يديه دوبيت بالأعجمية معناه أنه جعل الليل (برد دارا) [١٣٠] للحبيب ليحجب الشمس . فاستحسن المعنى وأرسل الى وزيره نجم الدين أبى الفتح يوسف بن المجاور يأمره ان يصنع المعنى فى شعر وأن يأمر الشعراء بالعمل فى ذلك . فصنع بديها وأرسل اليه :

قـــال له الليل انصرف راشـــدا   فانه اســـتخدمنى بـــرد دار

ثم صنعوا بعده فمن مرو ومن باده[١٣١] .

وعلى هذا النحو نجد حكام الدولة الأيوبية فى مصر وسلاطينها يحيون بأدبهم هذا التراث الذى تهدينا اياه لغتنا العربية بما فيها من تذوق وثروة ينجح فى اظهارها من يحسن استغلالها .

٦ — من عوامل ازدهار الأدب أيضـا أن حظ مصر فى العصر الأيوبى من الادباء والعلماء كان عظيما ، فقد أنجبت تلك البيئة نخبـة عظيمة منهم كان لبعضهم حظ الانتماء الى ديوان الانشاء ومن أبرزهم

---

(١٢٩) بدائع البداثة : ص ١٥٤ .
(١٣٠) البردار : هو من يكون فى خدمة مباشرى الديوان .
(١٣١) بدائع البدائة : ص ٢٧٦ .

القاضى الفاضل الذى تولى هذا الديوان واحتضن عددا من العلماء والادباء الذين وجدوا فى رحابه كل العناية .

وقد أشاد العماد فى خريدته بالقاضى الفاضل حيث قال : (صاحب القرآن ، العديم الأقران ، وواحد الزمان العظيم الشان ، رب القلم والبيان واللسن واللسان [١٣٢] . وممن كان للقاضى الفاضل الأثر للطيب عليه العماد الأصبهانى الذى لازم صلاح الدين وحين نزل القاهرة وجد أهلا بلا أهل ، ورأى من القاضى الفاضل ما أبدل وحشته أنسا [١٣٣] . كذلك الاسعد بن مماتى وهو من أسرة ثرية فى أسيوط بصعيد مصر ، أخذ يدرب نفسه على كتابة الانشاء والتحق بديوانه وبرع فيه ، وقال عنه العماد : أحد الكتاب فى الديوان الفاضلى ، ذو الفضل الحلى والشعر العلى [١٣٤] . وقال عنه القاضى الفاضل : انه بلبل المجلس لما كان يروى من حسن خطابه) . وقد تعلم كثيرا من علوم عصره كاللغة والأدب والتاريخ والطب والفلسفة . ومن أدباء مصر أيضا أبوه أبو الخطير بن مماتى المتوفى سنة ٥٧٧ هـ[١٣٥] . وأما ابن سناء الملك فقد الحقه أبوه بديوان القاضى الفاضل حيث رعاه وأحبه ... وقال عنه العماد : أحرز فى صناعة النثر والنظم غاية ... وستكثر فرائده وتؤثر قلائده) [١٣٦] .

ولعلنا نلحظ فى أسماء الأدباء الذين ضمتهم مصر أنهم كانوا يملكون القدرة على الكتابة والنظم ، فلهم ملكة الشعر والنثر .. وهذا دليل القدرة والابداع .

---

(١٣٢) الخريدة : قسم شعراء مصر ، جـ ١ ص ٣٥ .
(١٣٣) الروضتين : جـ ١ ص ٢٦٧ .
(١٣٤) النجوم الزاهرة : جـ ٦ ص ٢٤٣ .
(١٣٥) الخريدة : قسم شعراء مصر ، جـ ١ ص ١١٣ .
(١٣٦) المرجع السابق : جـ ١ ص ٦٨ .

ومن أدباء مصر أيضا ابن النبيه الذى نال حظا كبيرا من الدراسة الأدبية اذ كان يرغب فى العمل بديوان الانشاء ، وله ديوان شعر صغير ، وأما البهاء زهير فهو من الأدباء الذين ملكوا ناصية الأدب شعره ونثره ، وأتقن صناعة الانشاء ، وقد كتب رسالة الملك الصالح نجم الدين أيوب الى الملك الفرنسى لويس التاسع سنة ٦٤٧ هـ أثناء غزوه دمياط .. قال عنه ابن خلكان : (كنت أود لو اجتمعت به لما كنت أسمع عنه ، فلما وصل اجتمعت به ورأيته فوق ما سمعت عنه من مكارم الأخلاق وكثرة الرياضة ودماثة السجايا) . ويأتى ذكر ابن مطروح الشاعر الذى تعلم القرآن والحديث وجملة المعارف الاسلامية فى عصره وهو من صعيد مصر برع فى الأدب والكتابة وله ديوان شعر(١٣٧) .

وأيضا هناك ابن لقمان الذى تخرج فى ديوان الانشاء على يد الصاحب البهاء زهير ، وكان ناظما ناثرا ، وهو الذى احتجز فى داره ملك فرنسا حين أخذ أسيرا فى المنصورة .

ومن شعراء مصر المجديين أيضا ابن الساعاتى : وهو أبو الحسن على بن محمد بن رستم ، الشاعر الملقب بهاء الدين نشأ وتثقف فى دمشق .. ثم جاء الى مصر وبقى بها حتى مات بالقاهرة سنة ٦٠٤ هـ(١٣٨) . وهو خراسانى الأصل .

وابن سناء الملك هبة الله بن الرشيد جعفر بن المعتمد بسناء الملك نبغ فى الشعر وهو صغير وتأدب على الفاضل الذى أحبه ورعى موهبته ومما أفاد به فى مجال الأدب غير الشعر ذلك الكتاب الذى وضع فيه

---

(١٣٧) النجوم الزاهرة : جـ ٧ ص ٢٧ .

(١٣٨) وفيات الأعيان جـ ٣ ص ٣٩٥ .

قواعد الموشحات وسماه (دار الطراز)[١٣٩] . وقـد عنى أبوه بتربيته فحفظ القرآن على القراء ودرس النحو على أئمته ، ودرس علم الكلام والمنطق والفقـه .

وأما البوصيرى ، فهو من شعراء التصوف والمديح النبوى .. وشعره فى غاية الحسن والطلاقة عذب لألفاظ منسجم التراكيب[١٤٠] وله ديوان شعر ومن أهم أشعاره البردة والهمزية التى نظمهمـا فى مديح الرسول صلى الله عليه وسلم .. كذلك سار فى نفس النهج الشاعر ابن دقيق العيد الذى نشأ فى قوص عاصمة العلم فى صعيد مصر ودرس فيها النحـو وعلوم اللغة كذلك درس فقه الشافعى فى القـاهرة ، وكان صالحا تقيـا[١٤١] .

وهناء أيضا من الشعراء الذين لا يغفل ذكرهم فى العصر الأيوبى جمال الدين أبو الحسين الجزار الذى ورث مهنة « الجزار » عن أبيه وأقاربه وعاش بالفسطاط وفى القاهرة . وكانت له مدائحه فى ملوك العصر الأيوبى ، وكان يميل فى شعره الى جانب الفكاهة ، لكنه جيد النظم كما يقول الكتبى[١٤٢] .

ويطول بنا القول لو حاولنا اثبات كل شعراء مصر وكتابها فى العصر الأيوبى ، فقد بلغوا كثرة كبيرة ، ولكن يهمنا أن نقول ان هذه الكثرة لم تكن كثرة عدد فحسب وانما كانت كثرة فكر ونتاج أدبى عظيم جعل مصر منارة الأدب وقبلة الأدباء فى العصر الأيوبى ، وأقبل عليها الكثيرون ، وكانت لهم اللقاءات التى يتناولون فيها مسائل العلم والفكر وتبدو فى مسائلهم ملامح النقد والتذوق . ومن أمثلة ما كان فى هذه

---

(١٣٩) جميع هذا الديوان موشحات ، معجم المؤلفين جـ ١٣ ص ١٣٥
(١٤٠) فوات الوفيات : جـ ٢ ص ٣١٤ .
(١٤١) الطالع السعيد : ص ٣١٦ .
(١٤٢) فوات الوفيات : جـ ٢ ص ١٧٩ .

اللقاءات من قدرة على التذوق ما قاله ابن سناء الملك : (تذاكرنا فى بعض الأيام بديوان الانشاء فأفضى بنا الحديث الى ذكر الناشىء الاصغر وقوله فى وردة :

ووردة فى بنـــان معطـــار حبـا بهـا فى خفى اســـرار
كأنهـا وجنـة الحبيـب وقـد نقطهـا عاشـــق بدينـــار

فقال ابن سناء الملك : تشبيه الصفرة بالدينار فيه تقصير ، وعليه نقد خفى لا يدركه الا الناقد البصير ، وهو كون الصفرة فى رأى العين أصفر من الدينار ولو قال :

كمثـل وجنة خـود قـد تقطعت ربـاع

لكان أخصر وأحسن ، فاستحسنته الجماعة(١٤٣) .

وموقف ثان لملامح النقد حيث قال على بن ظافر : حضرنا يوما عند الصاحب على الدين المنصور على ببلبيس ومن جملة من معنا ابن سناء الملك والأسعد بن شيت فاقترح الصاحب أن نعمـل فى منجنيق الشمعة ، وكان الهواء عاصفا ، فقلت :

أرى شـمعة ضـمها المنجنيـق فجـاءتك بالمنظـر الأعجـب
يجـول عليهـا احمـرار الفشاء كما جـال بـرق عـلى كـوكب

وقال ابن شيث :

وشـمعة فى المنجنيـق وهى فيـه تشـرق
كأنهـا مـن تحتـه شمس علاهـا شـفق

---

(١٤٣) بدائع البداءة : ص ١٠٨ .

وانتقد عليه تشبيهها بالشمس وقالوا : النجم أليق ، وقال الصاحب فيها معنى آخر لو نظم لكان مليحا وهو أن يشبه بالروح والجسد لأن انارة الجسد واضاءته بالروح التى فى باطنه ، فارتجلت وقلت :

وشمعة فى المنجنيق تلتظى وتنقد
تنير فيه مثلما ينير بالروح الجسد

فاستحسن الجماعة ذلك على حسب الوقت(١٤٤) •

ان الشعراء لم يتركوا فرصة دون انتهازها لينظموا شعراً أو يبدو ملاحظة أو يطرحوا فكرة ، أو يثيروا نقدا يفتحون به أبوابا أخرى للقول والابتكار ، لقد كانت قرائحهم حاضرة وأذهانهم صافية تلتقط الفكرة وتحييها وتضفى عليها ما تجود به أفكارهم ، ولقد انتجت هذه الفترة الكثير من النتاج الأدبى فدواوين الشعر كثيرة ونتاجهم النثرى وفير يستحق أن نعكف عليه لندرسه ونتبين أسراره •

وليس هذا بغريب فى بيئة كمصر ، انها ذات تراث حضارى قديم فى الاسلام ومنذ القدم ، ان الديار المصرية حوت مراكز متعددة للعلم انتشرت فى بلدان كثيرة ولم تكن مقصورة على بلدة أو مدينة دون أخرى ، فكانت القاهرة صاحبة النصيب الأكبر من حيث عدد المدارس والمساجد ، كذلك الاسكندرية كثرت فيها مراكز الدرس فى مساجدها ومدارسها التى كان يقصدها طالبوا المعرفة • كما كان فى صعيد مصر « قوص » تلك المدينة التى وفد عليها كثيرون من علماء الغرب وهم فى طريقهم للحج •• وقد اشتهر من أدبائها البهاء زهير وزكى الدين الكاتب وابن دقيق العيد • كما كانت مدينة « أسيوط » ضمن مراكز العلم فى مصر ، وقد حوت تاريخا وحضارة ومن أدبائها الأسعد بن مماتى وأبوه الخطير وابن مطروح •

---

(١٤٤) بدائع البدائة : ص ٢٦٨ •

وانتشرت فى الديار المصرية كل المعارف والعلوم فمنها العلوم الدينية كالقرآن والتفسير والحديث والفقه ، كذلك العلوم التاريخية والسير والتراجم ، وعلوم اللغة والنحو وغير ذلك مما فيه الدلالة على الازدهار الفكرى الذى تدل عليه وفرة المؤلفات والدواوين الشعرية فى هذا العصر .

تلك هى البيئة المصرية وتاريخها الأدبى وصورة الازدهار الذى صار علامة واضحة فى العصر الأيوبى شهد له الجميع وأشادوا بملكة أصحابه وقدرتهم على الابداع .

الفصل الثاني

وصف المعارك والحروب

ان تصوير المجتمع من الناحية السياسية يعد ضروريا ، لا سيما اذا كان هذا المجتمع تتضح فيه ملامح الصراع والكفاح والمقاومة ، وكذلك ما يرتبط بمعانى الانتصار أو الهزيمة ، فذلك كله يهتم به الشعراء والكتاب حيث أنهم أقدر من يستطيع التعبير عن ذلك الجانب فى مجتمعهم وهم — وحدهم — الذين يؤخذ نتاجهم الأدبى على أنه وثيقة قوية يطمئن اليها الباحثون والنقاد ، وان من الشعراء والكتاب ما يستند الى ما أتوا به فى هذا المجال خاصة وأنهم يعيشون الأحداث فى وقتها فهم يسيرون جنبا الى جنب مع المؤرخين فى سبيل أبراز وتأكيد صورة المجتمع من الناحية السياسية .

ووصف البيئة من الناحية السياسية ليس جديدا فى الشعر العربى فقد واكب ما دار من معارك وحروب على مدى التاريخ العربى وصور الشعراء أحداثها ومعاركها وملابساتها ونتائجها .. ولا زلنا نذكر « أيام العرب » وما قيل فيها من شعر ، وليس ببعيد فى تاريخ الشعر ما قيل فى تلك الحروب التى خاضها سيف الدولة الحمدانى مع الروم فى القرن الرابع ، وكان فرسان تلك الحلبة من الشعراء المتنبى وأبا فراس الحمدانى .

ومن العصور التى تعد ذهبية وكان لها تأثير كبير فى الجانب السياسى وفى رصف المعارك والحروب « العصر الأيوبى » فى مصر ، الذى يمتد من سنة ٥٦٧هـ الى سنة ٦٤٨هـ . لقد كان عصرا مليئا بالحياة الغامرة العامرة بالمعارك فى الداخل ومع العدو القادم لغزو البلاد ، كان عصرا نابضا بمعانى الانتصار والهزيمة ، فسار الشعر مع أحداث هذا العصر ، وعبر عنها تعبيرا صادقا . وكان تأريخا لتلك الأحداث متوازيا معها ، مواكبا لها .

وسبق أن أوردنا تصوير الحياة السياسية لهذه الفترة ، وتتبعنا أحداثها ويهمنا هنا أن نبين كيف أن الشعراء استطاعوا أن يبرزوا حقيقة تلك الحياة ويلقوا عليها الضوء الساطع . فى مراحلها المتعددة من انهيار الدولة الفاطمية الى قيام الدولة الأيوبية ، الى تصوير المعارك والصراعات الداخلية ، ووصف المعارك مع من أرادوا غزوها من الفرنج .

ان أول صورة نبرزها فى هذا العصر بدايته وكيف اتجه الشعراء الى تصويرها . ونحن نعلم مما سبق فى الحديث عن الحياة السياسية أن الدولة الأيوبية قامت على أنقاض الدولة الفاطمية ، وهذا كان يعنى فى نفوس المصريين الشىء الكثير ، يعنى عندهم تحررهم من عقيدة الفاطميين التى كانت بالنسبة لهم شططا لا يناسب روحهم وتدينهم ، وحين وضح ترحيب المصريين بأسد الدين وزيرا لهم بعد شاور السعدى ، فانما وجدوا فى ذلك أملا جديدا فى احياء السنة بعيدا عن التشيع . وهنا صور الشعراء ذلك الاحساس ، فهم يرون أن حكم الفاطميين ما هو الا استعارة للخلافة ولابد أن تسترد منهم ، يقول العماد فى ذلك [1] :

من دم الغادرين غادرت بالأمـ ... س صعيد الصعيد وهو غدير
ولكل من تطاولت فيهم ... أمل قاصر وعمر قصير
والذى يدعى الامامة بالقا ... هرة ارتاع انه مقهور
فاستردوا حق الامامة ممن ... خان فيها فانه مستعير

وكان القضاء على شاور الخليفة الفاطمى بداية لعصر جديد

(١) الروضتين : ج ١ ص ٣٧٢ ، ص ٣٧٣ .

حيث ملك الوزارة من يدينون بالاسلام على حقيقته باتباع السنة ..
لذا يعبر أسامة بن منقذ عن هذا الاحساس الذى عم نفوس المصريين (٢) :

أقمت عمود الدين حين أماله   لطاغى الفرنج الغنم طاغى بنى سعد
وجاهدت حزب الكفر حتى رددتهم   خزايا عليهم خيبة الذل والرد

وكأنما فتح هذا الحدث الكبير الباب لتنطلق ألسنة الشعراء بهجاء شاور وغدره فلم يرحمه أحد بعد قتله ، بل ان الشاعر عرقله فى أبيات له يأبى له هذه الرحمة فيقول (٣) :

لقد فاز بالملك العظيم خليفة   له شيركوه العاضدى وزير
هو الأسد الضارى الذى جل خطبه   وشاور كلب للرجال عقور
بغى وطغى حتى لقد قال قائل   على مثلها كان اللعين يدور
فلا رحم الرحمن تربة قبره   ولا زال فيها منكر ونكير

وانطلقت الفرحة فى أنحاء البلاد فى مصر وخارجها ، فها هو العماد الكاتب يعبر عن مشاعر متعددة تنتقل بين اعلان الفرحة بهذا الحدث الكبير ، وتلك الانطلاقة التى يتطلع اليها المسلمون بفتح باب الأمل أمامهم لاسترداد بيت المقدس ، ويعبر أيضا عن تطلع المصريين الى العودة الى أحضان الخلافة العباسية ، حتى يتم التخلص تماما من حكم الفاطميين ، فالقضاء على وزيرها لا يكفى ، فان استئصال الذنب لا يقضى على سم الأفعى ، وانما عليه ان يقطع دابرهم ويقضى على الرأس . يقول (٤) :

---

(٢) الروضتين : جـ ١ ص ٣٩٥ .
(٣) ديوان عرقلة : ص ٥٢ .
(٤) الكامل : جـ ٩ ص ١١٢ .

فتحت مصرا وأرجو أن تصير بهـــا ميســـرا فتح بيت القدس عن كثب

شكا اليك بنـــو الاســـلام يتمهم فقمت فيهم مقام الوالد الحـــدب

من شرشاور أنقـــذت البلاد فكم وكم قضيت لحـــزب الله من أرب

رد الخلافـــة عباســـية ودع الـــ دعى فيهـــا يصـــادف شر منقلب

لا تقطعن ذنب الأفعى وترســـلها فالحزم عندى قطع الرأس والذنب

ويتحقق هذا الأمل حين تولى صلاح الدين أمر الوزارة خلفا لعمه أسد الدين وبعدها اتحدت الآراء على قطع الخطبة عن الخليفة العاضد، وان تعلن تبعية مصر للخليفة العباس فى بغداد « المســتضىء بالله » وقد ضربت البشائر عدة أيام وزينت بغداد كما وردت البشـــائر الى الخليفة المستضىء بفتح مصر وباقامة الخطبة له بها فاظهـــر السرور ببغداد وهنأه الشعراء [٥] .

لقد زها الشعراء معبرين عن فرحتهم الشاملة ، وتعلوا صـــيحة الفرحة مدوية ليس فى مصر وحدها ، وانما تردد صداها فى أرجـــاء الشـــام أيضا والعراق فالعماد الأصبهانى يصور كيف عاد الى مصر حكم العباسيين بعد شعور بالذل والمهانة ، لقد عاد المصريون الى طريق الحق والصواب فنهجوه واستقروا عليه . يقول فى ذلك [٦] :

قـــد خطبنـــا للمستضىء بمصـــر نائب المصـــطفى امـــام العصـــر

واشـــعنا بها شـــعر بنى العبـــ(م) باس فاستبشرت وجوه النصر

وتباهت منـــابر الـــدين بالخط بة للهـــاشمى فى أرض مصـــــر

واغتدى الدين ثابت الركن فى مصـــر محوط الحمى مصـــون الثغر

عرف الحق أهل مصـــر وكانـــوا قبلـــه بـــين منكـــر ومقـــــر

---

(٥) الفخرى فى الآداب السلطانية : ص ٢٦٤ .

(٦) الروضتين : جـ ١ ص ٥٠٣ .

ووفد الشاعر عرقلة الدمشقى الى صلاح الدين يعلن أن مصـــر قد استقام لها الأمر فى ظل الحكم العباسى ، ولم يعد يحكمها الا من يخضع لقانون الله عز وجل لقد تخلصت مصر من كل حكم يبعد بهـا عن شريعة الله . يقول (٧) .

أصـــبح الملك بعـد آل عــلى مشرفا بالملوك من آل شـــاذى

وغدا الشرق يحسد الغرب للقــو م ومصر تزهــو عـلى بغـــداد

لقد كان الشعراء أسرع فى تصوير تلك الاحداث السياسية بين انتهاء دولة وتكوين أخرى ، كما كانوا أشد صراحة فى وصف ذلك ، فالعماد الأصفهانى لا يكتفى بوصف مشاعره ، والتعبير عما كان من زوال الدولة ، بل يعلن شماتته فى الدولة المنقرضة فى غمار فرصته بتوحيد البلاد تحت راية الخلافة العباسية ، ويصف عنف وســيطرة الحكام الفاطميين بأنهم كانوا كفرعون فى طغيانه ، ويحسن استخدام الأسماء فى أبياته فيرى ان يوسف عليه السلام فى خضم ظلم فرعون كان حكيما ، واستطاع أن يعيد الأمور الى نصابها ، وهذا « يوسف » أيضا فى العهد الجديد يمضى فى اصلاح أهل مصر .. يقول (٨) :

تــوفى العاضــد الدعــى فمـا يفتــح ذو بدعــة بمصــر فمـا

وعصر فرعــونها انقضى وغــــدا يوســـفها فى الأمــور محتكمـا

لـــا غدا معلنـــا شـــعار بنى الـــ عبـــاس حقـــا والبـــاطل اكتتمـا

وظــل أهـــل الضــــلال فى ظلـــم لـــا أضـــاءت منـــابر العلمـــا

واستبشرت أوجــه الهـدى فرحا فليقرع الكفــر سبنة ندمـــــا

---

(٧) ديوانه : ص ٣٧ .
والمقصود بآل على الفاطميون ، وآل شاذى الأيوبيون .
(٨) الروضتين : ج ١ ص ٤٩٦ .

ولم تقف مشاعر الشعراء عند وصف مظاهر الفرح والسرور ، لزوال الدولة الفاطمية وقيام الدولة الأيوبية ، وانما كان هنـاك من وصف احساس الألم والحزن ، فمن الطبيعى أن السياسة فى كل زمان ومكان لها من يؤيدها ومن يعارضها ، وممن وصف معانى الأسى لضياع الدولة الفاطمية وزوال سلطانها الشاعر عمارة اليمنى ، ذلك الشاعر الذى كان ولاؤه لهذه الدولة سببا فى القضاء عليه وقتله وصـلبه قال مصورا مشاعره بأبيات قال المقريزى « ان بسبب هذه القصيدة قتل عمارة وتمحلت له الذنوب .. يقول [٩] :

رميت يا دهـر كف المجد بالشلل ... وجيده بعـد حلى الحسن بالعطل

لهفى ولهف بنـى الآمـال قاطبة ... على فجيعتنـا فى أكـرم الدول

بالله زر ساحة القصرين وابك معى ... عليهما لا عـلى صفين والجمـل

وقل لأهليهمـا والله مـا التحمت ... فيكم قروحى ولا جرحى بمندمل

كان ذلك وصف الشـعراء لنهـاية الحكم الفـاطمى فى مصر ، وترحيبهم بالدولة الأيوبية الجديدة التى فتحت أمامهم طريقا جديدا يعبرون به عما يرونه فيها من أحداث أو مواقف حرص الجميع على تسجيلها . ولقد عاش الشعراء مع الدولة الجديدة ووصفوا ما واجهته وما واجهها ، فلقد كانوا العين المتفحصة لكل ما يدور حولها ، ووصفوا ما كان فيها من صراع داخلى ، ثم ما كان من صراع الغزو الصليبى للبلاد المصرية .

ـ وصف النزاع والصراع الداخلى :

كان أيضا مما تنبه له الشعراء وعملوا على ابرازه ، ومن ذلك ما كان من فتن أراد بها أصحابها اعادة الحكم للفاطميين ومنها ما كان

---

(٩) الخطط : جـ ١ قسم ١ ص ٤٩٦ .

فى فتنة مقدم السودان من صعيد مصر سنة ٥٧٢ هـ ولكن أحبطت هذه الفتنة وانتهى أمرها بأن قتل كبير السودان ومن معه [١٠] ولقد صور العماد الأصبهانى ما أراده الله من انتصار صلاح الدين على من أراد خيانته وأوضح أن القضاء على هذه الفتنة قرت به عين الاسلام بعد أن أرقتها الخيانة •• يقول [١١] :

بالملك الناصر استنارت فى عصرنا أوجه الفضائل
يوسف مصر الذى اليه تشد آمالنا والرواحل
أقررت عين الاسلام حتى لم يبق فيها قذى لباطل
صيرت رحب الفضا مضيقا عليهم كفه لجائل
وقد غلت منهم المغانى وأقفرت منهم المنازل
وما أصيبوا الا بطل فكيف لو أمطروا بوابل

ومما عاشه الشعراء أيضا ووصفوا أحداثه ما كان من صراع وتنافس بين الملك العزيز وأخيه الملك الأفضل ، وقد اشتد الصراع الى حد المواجهة والصدام حيث اصطحب الملك العزيز العساكر الصلاحية والأسدية والأكراد ، وكل فريق ينافس الآخر ويطلب عثاره خاصة أنهم كانوا يعلمون أن الأمراء الصالحية متقدمة عند الملك العزيز فحسدتها الأمراء الأسدية ، واضطربت أمور العسكر وانتهى الأمر بالتفرق واضطرابهم على العزيز ومفارقتهم له ، ولكن يستدرك الأمر بفضل نائب صلاح الدين الذى كان معينا على مصر وهو بهاء الدين قراقوش الأسدى ، فاستطاع باخلاص أن يعيد جمع الأسديين معه •

واستطاع الشاعر ابن سناء الملك أن يصور ذلك الموقف وما كان

---

(١٠) النجوم الزاهرة : جـ ٦ ص ٧٨ •

(١١) الخطط المقريزية : جـ ٢ ص ١٩ •

من فرار الجيش وتمردهم على الملك العزيز ، ويستطيع بخياله الشعرى أن يبين أن فرارهم لم يكن الا لعلمهم بأنهم لم يكن لهم القدرة على الصمود أمامه ، فهم صغار على هذا الموقف ، وهم على ما كان يطلق عليهم اسم الأسدية ونسبتهم الى الأسود ، فهذه التسمية لم تستطع أن تخفى صغرهم فقد طاروا كما يطير الحمام ، ذلك الطائر الصغير الضعيف ، ففروا كالنعام خشية قوة ذلك الملك العظيم يقول ابن سناء الملك (١٢) :

من فــر منــك فــلا يــسلام	وطــريد بأســـك مــا ينام
فـــرت لخـــوفك غلمــة	ولطـــالما فـــر الغـــلام
خافـــوا مقـــامك ذا العظيــ	م فلــم يكن لهــم مقـــام
وهـــم الأســـود فمـــا لهم	طـــاروا كما طـــار الحمـــام
ونعـــم لهـــم نعـــم فلـــم	شـــردوا كما شـــرد النعام
ســـخرت بهـــم أوهـــامهم	هـــزوا وبالأوهـــام هامـــوا
ومضـــوا وما ســـل الحســـا	م فكيف لـــو ســـل الحسام

ثم يبين الشاعر أن الملك العزيز كان أمامه أمران ، أما أن يعفو عنهم وهذا من شيم الكرام ، واما أن يختار ما يستحقونه من انتقام فليس لهم حرمة أو عصمة تمنع عنهم هذا الأمر ، فهم لم يحمدوا نعمة، بل كفروا بما قدمت اليهم يداه .. يقول (١٣) :

ولئـــن عفـــوت فانمـــا يعفـــو عن الـــذنب الكـــرام

---

(١٢) ديوان ابن سناء الملك وكتب فى الهامش : (وقال هذه القصيدة سنة ٥٩٢هـ عندما هجر الأسدية جنود أسد الدين شيركوه الملك العزيز حبا فى الملك الأفضل) ، ديوان ابن سناء الملك جـ ٢ ص ٣١٠ .

(١٣) ديوان ابن سناء الملك جـ ٢ ص ٣١٠ ، ٣١١ .

وان انتقمت فان أيـ ـسر ما استحقوا الانتقام
ما دارهم حرم ولا في الشام صيدهم حرام
ستسوقهم بيد الزما ن وفى أناملك الزمام
وتثيد الأجسام ان كفرت لك النعم الجسام

وينهى الشاعر أبياته ببيان أن على الملك أن يهدأ بالا فقد استطاع أن يملك زمام الأمر ، ولكن لابد من اليقظة التى تهيىء له القضاء على النفاق وهو أعظم الداء ، فله القوة والمكانة التى تجعل العدى لا يجدون منه مفرا ، بل ان الهزيمة تعد ملجأ وملاذا منه فليس لهم جلد أو قوة على محاربته .. يقول :

قم فاملك الدنيا بأجـ معها فقد آن القيام
وشم الحسام فما يشا م الذل ان شيم الحسام
واحسم به داء النفا ق وانه الداء العقام
وأهب تجئك من العدى أيد ولبات وهام
ولانت وحدك ليس ينـ جى منك الا الانهزام

ومن طريف القول فى مجال تصوير الصراعات الداخلية أنه لما استقر الملك الأفضل بصرخد بعد صراعه مع الملك العزيز عثمان لم يجد من يشكو اليه غير الخليفة الناصر لدين الله فى بغداد ، فكتب اليه يشكو اغتصاب عمه وأخيه ما اعتقده ميراثه حيث جعل الحكم تركة يستحق أن يرثها عن أبيه ، ويحاول أن يربط بين ما كان من اعتقاد عند الشيعة من أن أبا بكر وعثمان بن عفان رضى الله عنهما قد سلبا حق خلافة المسلمين من على بن على أبى طالب وهو أحق بها ، وهو فى هذا

يربط بين اسمه واسم أخيه عثمان وعمه أبى بكر العادل ، فيقول مصورا ذلك الصراع (١٤) :

مولاى ان أبا بكر وصاحبه   عثمان قد أخذا بالسيف ارث على

فانظر الى حظ هذا الاسم كيف لقى   من الأواخر ما لاقى من الأول

ان تلك الأبيات على ما فيها من ايجاز عددى فهى لا تتعدى البيتين لتدل على ذلك الصراع القائم العنيف بين الحكام وتعطى تصويرا واضحا على فداحته • ويكتب الخليفة الناصر لدين الله من بغداد ردا على تلك الرسالة ويقول (١٥) :

وافى كتابك يا ابن يوسف معلنا   بالصدق يخبر أن أصلك طاهر

غصبوا عليا حقه اذ لم يكن   بعد النبى له بيثرب ناصر

فاصبر فان غدا عليه حسابهم   وابشر فناصرك الامام الناصر

ويستمر الصراع بين الحكام والملوك ، وفى عهد الملك الكامل الذى حكم مصر من سنة ٦١٥هـ الى سنة ٦٣٥هـ نجد الشاعر ايدمر يهنئه بانتصاره على منافسيه ويصف ما كان من تنافر وتنافس ما كان يصح أن يكون بين الأهل لكنهم جهلوا الحلم ، وأدى بهم هذا الجهل الى أن تستعر بينهم نار الحرب ويصور تصدى الملك الكامل لأعدائه حيث أصابهم الهلع والحذر والخوف ، وكانوا أمام قوة هذا الملك يتمنون لو أنهم استطاعوا الهرب والفرار ففيه نجاتهم وحياتهم •• يقول (١٦) :

لما نهدت الى الذين رمى بهم   فى الجهل حلمك والتحلم يجهل

---

(١٤) مفرج الكروب : جـ ٣ ص ٦٩ .

(١٥) المرجع السابق : نفس الجزء والصفحة .

(١٦) نقلا من الحياة الأدبية : د/ أحمد بدوى ، ص ٢١٨ .

نضجت جلودهم بنـار أوقـدت للخـوف بين ضـلوعهم تتـأكل
لو أيقنوا أن الفرار من الـردى ينجيهم فـروا اذا وتسـللوا
لكنهـم علمـوا يقينـا أنهـم لا يعجزونك أحزنـوا أو أسهلوا

ويتجه الشاعر الى بيان أمر هام هنا وهو صـلة القـرابة بين المتحاربين فهو يبين أن هناك عاطفة تربط بينهم فيوضح أن هـؤلاء المتصارعين لو أنهم رضـوا بما يريده لهم الملك الكامل لكان فى هـذا مكسب أكبر مما يطمحون اليه ، فهم قد أخطأوا الطريق وسلكوا درب الحـرب وهـو طريق لم يكونوا لينالوا منه حصادا أو مغنمـا .. يقـول :

ولو أنهم ألقـوا مقادة أمـرهم بيديك حين قصـدتهم وتوكلـوا
لأ نلتهم ضـعفى مناهم راضـيا عنهم ونالـوا عاجلا ما أجلـوا
لكنهم دهشـوا بهيبتـك التـى دهمـوا بهـا وهى المقام الأهول
فتحصنوا حذرا وبأسـك لم يكن ليصدهم ــ لو شئت ــ باب مقفل

ثم يعيد الشاعر الحديث عن تلك الرابطة القوية بين الفـريقين المتحاربين وهى عاطفة القرابة التى جعلت الملك الكامل يعود فيصفح ويقبل عذر المعتذر ، وهذا لم يكن ليحدث لو لم تكن تلك الرابطة قائمة. يقـول :

حتى اذا جمعوا شـتيت حلومهم واستدبروا آراءهم واسـتقبلوا
وتفوا على أن ليس عنك لهم ولا لسـواهم عنـد الحقيقة معـدل
فصفحت عمـا كان غير مـؤاخذ فخطيئـة تعفـو وعـذرا تقبـل

لقد صور الشاعر ذلك الاحساس القوى الذى يكون عاملا قويا

فى محو الأثر النفسى من المتحاربين ، فهناك عاطفة وصلة رحم تربط بينهم تساعد على العفو والتسامح .. وهذا ما لمسناه فى أبيات ابن سناء الملك من قبل حيث خاطب الملك العزيز بقوله :

ولئــن عفــوت فانمــا　　　يعفو عن الذنب الكــرام

وهذه المعارك كانت عظيمة السيطرة على الأمراء والحكام أنفسهم، ففى سنة ٦٠١هـ فى عهد الملك العادل أرسل اليه الملك المعظم أبياتا يتضح فيها كيف أن الحروب قد شملت هذا العصر .. فهــو يستحث الملك العادل ليذهب الى الشام لقمع عدوها . فيقول فى أبياته [١٧] :

ارو رمــاحك من دمــاء عــداكا　　　وانهب بخيلك من أطــاع سواكا

وسر الغداة الى العــدو مبــادرا　　　بالضرب فى هــام العــدو دراكا

فاذا عــزمت وجدت من هو طائع　　　واذا نهضت وجــدت من يخشاكا

والعجز أن تمسى بمصـــر مخيما　　　وتحل من تلك العــراض عراكــا

ويرد عليه الملك العادل بأبيات نظمها على بن ظافر على لسانه يقول موضحا أن وجوده فى مصر كان لضرورة قمع الأعداء ومواجهة الثورات فيقول :

ما زرت مصر لغير ضبط كفــورها　　　فلذا صبرت ــ فديت ــ عن رؤياكا

لولا الرباط وفضله لقصدت بالــ　　　ــسير الحثيث اليك نيل رضــاكا

هذه صورة لما كان من وصف الشــعراء للاحــداث والصراعات الداخلية فى مصر فى العصر الايوبى ، واستطاع الشعر بذلك أن يعطينا صورة صادقة لتلك الحياة وأن يضع أدينا على المواقف والأحــداث

---

(١٧) بدائع البدائة : ص ٣٢٣ .

متواكبا مع ما أرخه المؤرخون وكان عاملا قويا فى فهم هذه الأحداث وتصوير ما كان فيها •

— وصف المعارك والحروب مع الافرنج :

واذا كان ما سبق هو شأن الشعراء فى وصف وتصوير ما كان من صراع داخل أوطانهم وبين حكامهم ، فلنر الآن ما كان بشأن تصوير مقاومة المصريين لمن جاء يحاربهم ، ووفد اليهم من بعيد يريد أن يغزو بلادهم ويسيطر عليها ، بل أنه أراد التغلغل داخل نفوسهم لتحطيم عقيدتهم ومحاربتهم فى دينهم ، انه العدو الصليبى الذى هجم هجمته الشرسة بغية اضعاف المسلمين وتملك أمرهم •

ولقد مر بنا من قبل فى وصف الحياة السياسية كيف وقف المصريون وقفة قوية وصمدوا أمام العدو الصليبى وحاربوه وصدوه بأجسامهم وبذلوا دماءهم ، وتحملوا القسوة والحرمان والأسر والنهب وصبروا على الجوع لكنهم ما بخلوا بشىء من أنفسهم وأرواحهم فى سبيل صد هذا العدو الغادر •

لقد طمع الفرنج فى غزو مصر ، وعاودوا هجماتهم عليها المرة تلو المرة ، وفى كل محاولة لا يجدون غير المقاومة والمطاردة ، وليس هذا بغريب على أهل مصر الذين عرف عنهم الاباء والشمم ، فكان منهم ما كان فى رد هؤلاء الغزاة الكفار ولم يكن الشعراء بعيدين عن وصف ذلك الجانب ، بل انطلقت السنتهم تعبر عن مختلف المشاعر والأحاسيس والصور ، فالشعراء هم لسان المجتمع ، وهم أهل لتصوير كل ما يجيش به الصدر وتنطق به النفس ، ان الشاعر يصف صرخة الناس حين ينتابهم القلق والألم ، كما أنه ينطق بالفرحة ويعلن صيحة الأمل والبهجة حين تزهو فى أمته الأيام • ان الحروب الصليبية والهجمات التى أثارها الافرنج فى البلاد الاسلامية جعلت كل البلاد تأسى لهـ

الحدث الرهيب ، وكانت مصر بكل أهلها قد ساءها وجود الصليبيين فى فلسطين وبيت المقدس .. لذا فلا عجب أن تنطلق صيحة الانتصار حين بارك الله فى جهادهم وانتصر صلاح الدين فى حطين وغيرها ، ولا يغيب عنا ما قاله ابن سناء الملك الشاعر المصرى فى وصف موقف الانتصار فى موقعة « حطين » سنة ٥٨٣هـ حيث استرد بعدها بيت المقدس فقد قال [١٨] :

لست أدرى بأى فتح تهنا … يا منيل الاسلام ما قد تمنى
قصدت نحوك الأعادى فرد الله (م) ما أملوه عنك وعنا
واستحالت شقائق الكفر صمتا … حين عادت تلك الشجاعة جبنا
أشجع القوم فيهم جاعل الدر … ع هروبا أو الفرار مجنا
وجرت منهم الدماء بحارا … فجرت فوقها الجزائر سفنا
والمليك العظيم فيهم أسير … يتثنى فى أدهم يتثنى
كم تمنى اللقاء حتى رآه … فتمنى لو أنه ما تمنى

ان هذه صورة من صور التعبير عما يصف به الشاعر المعارك والحروب ومواقعها ، بوصف الهزيمة أو الانتصار . واذا كان هذا شأن المصريين فى احساسهم من حروب الصليبيين فى الشام ، فان مشاعرهم وتعبيرهم عما فى بلادهم وأرضهم يكون أقوى وأعظم ، ولقد تضامنت معهم أيضا مشاعر المسلمين فى كل مكان ، وتلك هى روح الاسلام التى تنطق تعاليمه بكل ما يعبر عن ترابط المسلمين ، فهم فى توادهم وتراحمهم كالجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى . تلك هى الروح التى لمسناها عند

---

(١٨) ديوانه : ص ٣٤٠ .

المسلمين وشعرائهم حين أراد الفرنج النيل من المصريين والاعتـداء على أرضهم •

ولنر الآن ماذا كان احساسهم حين أتى الاعداء وهاجموا ديارهم، لقد كان وصف الشعراء لهذه الأحداث رائعا ، لم يتركوا شيئا دون أن يبرزوا حقيقته ، وصفوا هجوم الجيوش ، والمحاربين ، وصفوا أحاسيس الانتصار أو الهزيمة ، كل ذلك فى صور رائعة تبرز دور الشعراء فى مواكبة الأحداث وتصوير المجتمع •

ومن هذه المواقف تلك الحملة التى صد فيها الأيوبيون هجـوم الفرنج سنة ٥٦٥ هـ حيث هوجمت دمياط ، لكن مقاومة المصريين جعلتهم يعودون مدحورين دون أن يتحقق أملهم فى الاستيلاء على البـلاد ، ووصف الشاعر فتيان الشاغورى أحداث هذه المعركة ، ووصف جيش العدو الذى جاء غازيا وكان من الكثرة بحيث بدا بحرا هادرا لا يرى له ساحل ، جاء ممتدا يضم جنودا وعتاد حرب وخيولا ، ولكن أين ذلك كله أمام عزيمة أصحاب البلاد الذين وقفوا سدا منيعا يردون كيـد العدو الذى أذهلته المفاجأة • يقول الشاعر (١٩) :

ولمـا أتوا دمياط كالبحـر طاميا   وليس له من كثـرة القوم ساحل

يزيد عن الاحصـاء والعد جمعهم   ألوف ألوف خيلهم والـرواحل

رأوا دونهم أسـدا بأيديهم القنا   وبيضا رقاقا أحكمتهـا الصـيأقل

وداروابها فى البحر من كل جانب   ومن دونها سـد من الموت حائل

ومما نلحظه أن الشاعر فى أبياته لم يغفل بيان وسيلة الحـرب

---

(١٩) الروضتين : جـ ١ ص ٤٦١ •

كالقنا والبيض الرقاق والصياقل ، فهو يصف الصورة كأنه يعيش بين المحاربين أو كأنه منهم يحكى ما يراه .

ثم يصف الشاعر كيف أن العدو أمام دفاع المسلمين القوى ، لم يملك سوى أن يعود أدراجه ، وبدت صورة الجنود فى تشتتهم كأنهم أنعام جوافل تنطلق على غير هدى ، يلتمسون العودة الى بلادهم ففيها الملجأ والملاذ وليت ذلك يتحقق لهم ، أما بقاؤهم فى مصر ففيه دمارهم، وأرضها تصير مقبرة لهم . يقول :

رجا الكلب ملك الروم اذ رام فتحها   فخاف فأم الملك والروم هايل

فعادوا على الأعقاب منها هزيمة   كأنهم ـ ذلا ـ نعام جوافل

وما أملوا أن يلحقوا ببلادهم   لتعصمهم مما رأوه المعاقل

ويصف العماد الأصفهانى ما حدث فى تلك المعركة الكبيرة التى واجه فيها الناصر صلاح الدين المعتدين ، ويصور تصدى الجنود المصرية للجيوش الطامعة القادمة بكثرتها كالبحر الممتد الذى يقاوم الريح بموجه العالى القوى ، وجاءت الجيوش مشرعة سلاح الحروب تتباهى بعتادها .. ولكن أين هذه القوة وهذا الجيش أمام صمود مصر وقائدها ، لقد ضاع وهم الغزاة فى الانتصار حيث عصفت بهم قوة المصريين ، وتركهم قائدها طعاما للنسور تأكل بقاياهم وأشلاءهم . يقول [٢٠] :

كم جحفل بالعراء ذى لجب   بالصف منها يضيق صفصفها

كالبحر طامى العباب لاعبة   بموجة للرياح أعصفها

كتيبة منتضى مهندها   الى الردى مشرع مثقفها

---

(٢٠) خريدة القصر : قسم مصر جـ ١ ص ١١ ، ص ١٢ .

غادرتهـــا للنســـور مأكلـــة حيـث بأشـــلائها تضـــيفها
وحطت دميـــاط اذ أحـــاط بهـــا من برجـوم البـلاء يقذفهـــا

واذا كان الشاعر بهذا الوصف يشيد بعظمة صلاح الدين فى مواجهة العدو والانتصار عليه ، فانه فى المقابل يصف مشاعر المطران الذى صب عليه صلاح الدين وابلا من العذاب ، ولقد تهدمت الأسقف على رأس اسقف الفرنج ، وتكسرت صلبانهم ونكست أعلامهم ، وكان ما فعلوه من طرقهم السبيل الوعر فى رحلتهم الى مصر وما أصابهم من خيبة أمل ودمار لجنودهم كفيلا بأن يستخلصوا منه نهاية مطافهم وضياع ما أملوه . يقول :

لاقت غـواة الفـرنج خيبتهـــا فـزاد من حســـرة تأســـفها
غـــر فريريهـــا وأزعجهـــا نـــداء داويهـــا تلهفهـــا
يمطـــر مطرانهـــا العـذاب كما يردى بهـذ السقوف أسـقفها
تكســر صلبانهـــا وتنكســـها تعصـم أصـــلابها وتقصـفها
تعســـفت نحـوك الطريق فمـــا أجـدى سـوى هلكها تعسـفها
وحسـبها فى العمى تهافتهـــا بـل لسـهام الـردى تهدفهـــا
يمضى لـــك اللـــه فى قتـــالهم عزيمـة للجهـــاد ترهفهـــا

وفى سنة ٥٧٢ هـ يبين العماد الأصفهانى ما كان من أسر الفرنج فى هجومهم على الاسكندرية ودمياط وما فعله هذا الموقف فى نفس الشاعر ابن رواحة فيقول العماد [٢١] :

(كنا مجتمعين بمرج فاقوس مصممين على الغزاة الى غزة وقد

---

(٢١) الروضتين : جـ ١ ص ٦٩٣ .

وصلت أساطيل ثغرى دمياط والاسكندرية بسبى الكفار ، وقد أوفت على ألف رأس عدة من وصل فى قيد الاسار ، فحضر ابن رواحة منشداً مهنئا بعيد النحر ، ويقول :

لقد خبر التجارب منه حزم ... وقلب دهره ظهرا لبطن

فساق الى الفرنج الخير برا ... وأدركهم على بحر بسفن

وقد جلب الجوارى بالجوارى ... يمدن بكل قد مرجحن

زهت اسكندرية يوم سيقوا ... ودمياط فما منيا بغبن

يرون خياله كالطيف يسرى ... فلو هجعوا أتاهم بعد وهن

أبادهم تخوفهم فأمسى ... مناهم لا يبيتهم بأمن

تملك حولهم شرقا وغربا ... فصاروا لاقتناص تحت وهن

أقام بآل أيوب رباطا ... رأت منه الفرنجة ضيق سجن

رجا أقصى الملوك السجن منهم ... ولم ير عهده فى اليأس يغنى

ولقد زاد طمع الصليبيين فى مصر وزادت رغبتهم فى الاستيلاء عليها حين أحسوا أهميتها لحماية مملكتهم فى الشام ، وهم لم يكتفوا بما مر بهم من هزائم فى حياة صلاح الدين ، وانما نجدهم يعودون الى مصر ثانية فى عهد السلطان محمد الكامل واستولوا على دمياط واستمرت اقامتهم بها ثلاث سنوات عاثوا فيها الفساد وظلموا أهلها ظلما كبيرا وحين زاد طمعهم فى الاتجاه الى المنصورة ، وضج الناس وأعلنوا سخطهم لم يجد السلطان الكامل الا أن ينادى بالنفير بين الناس ، وأن يستنفر أخويه المعظم عيسى والاشرف موسى ، وكتب رسالته الى أخيه الأشرف موسى ضمنها تلك الأبيات (٢٢) :

---

(٢٢) السلوك : جـ ١ ص ٢١٢ ، والبداية والنهاية : جـ ١٢ ص ١٤٩ .

يا مسعدى ان كنت حقا مسـعفى فـانهض بغـير تلبث وتـوقف
واطو المنازل ما استطعت ولا تنخ الا عـلى باب المليك الأشـرف
واذا وصـلت الى حماه فقل لـه عنـى بحسـن توسـل وتلطـف
ان تـأت عبـدك عن قليل تلقـه مـا بـين كل مهنـد ومثقف
أو تبط عن انجـاده فلقاؤه يوم القيامة فى عراص الموقف

واستجاب الاشقاء للنداء وأقبلت جموع المصريين من أنحاء البلاد كلها قبولا لاستنفار الملك الكامل وأدى هذا التعاون والترابط الى انزال هزائم ثقيلة بالفرنج تضامنت فيها الطبيعة وغزارة فيضان النيل مـع المحـاربين •

وأثارت هذه المعارك قريحة الشعراء ، فنجد ابن عنين يصف ما كان فى هذه المعركة ، ويصور جيش العدو الهائل فى عدده وعتاده ، ويصف كيف أن الأعداء قد أخطأوا الظن بالمصريين حين استهانوا بقوتهم وغرتهم قوة أنفسهم ، فاعتقدوا الانتصار والظفر عـلى أهل مصر ، ولكنهم عنـد المواجهة راعهم أن رأوا المصريين على قوة العزيمة فى الذود عن بلادهم وصد العدوان بكل ما أوتوا من قوة ، فكانت المقاومة، وكان الدفاع ، لقد أسرع الأثنان الخطى الى الحرب ، ولكن شتان ما بين صاحب الحق ومغتصبه ، يقول ابن عنين [٢٣] :

سلوا صهوات الخيل يوم الوغى عنا اذا جهلت آياتنا والقنا اللدنـا
غداة التقينا يوم دمياط جحفـلا من الروم لا تحصى يقينا ولا ظنـا

---

(٢٣) ديوان ابن عنين : ص ٢٩ •

وقد ذكرت المصادر أنه لما تم الانتصار وفدت على الملك الكامل تهانى الشعراء بهذا الفتح فكان أولهم ارسالا ابن عنين بهذه القصيدة (السلوك ج ١ ص ٢١٠) •

تداعوا بأنصـــار الصليب وأقبلت   جموع كأن المـــوج كان لهم سفنا
وأطمعهم فينـــا غـــرور فأرفلـــوا   الينـــا سراعا بالجهـــاد وأرفلنـــا

ويصف الشاعر كيف أن المصريين ورفاقهم من الجيوش واجهوا الأعداء حتى جعلوهم يستجيرون بهم منهم ، وكانوا كمن يستجير من الرمضاء بالنار ، لقد تبدد من عيونهم النوم ولم يكن باستطاعتهم أن يأمنوا على أنفسهم وذلك حين بدأ الموت يحصدهم ويدمرهم ، ثـم يوضح الشاعر أن من عادة المصريين الكرم ، وأن لهم المواقف العظيمة فى الحرب والسلم ، فلقد عرف عنهم طيبة القلب وحسن الصنيع حتى مع أعدائهم .. ويصف الشاعر ذلك فيما حدث حين سلم بعض المحاربين من الأعداء أنفسهم الى المسلمين ، اذ عامل المحاربون المسلمون أسراهم معاملة كريمة يصفها الشاعر أنها كانت حياة جديدة منحت لهم اذ أبقوا عليهم فكان ذلك جميلا حمله لهم أعداؤهم دينا فى أعناقهم ، وهم بذلك يدركون ما سبق أن علموه عن المصريين من قوة بأسهم ورحمة قلوبهم ، فهم بقوتهم يستطيعون أن ينتصروا على ملوك يكبلون أيديهم بالأصفاد ، وحين يقع فى أيديهم أسير تكون رحمة القلب عنوان معاملتهم له . يقول ابن عنين (٣٤) :

فما برحت سمر الرماح تنوشـــهم   بأطرافها حتى اســتجاروا بنا منا
سقيناهم كأســـا نفت عنهم الكرى   وكيف ينـــام الليل من عدم الأمنا
لقوا الموت من زرق الأسنة أحمرا   فألقوا بأيديهم الينـــا فأحســـــنا
منحنا بقـــاياهم حيـــاة جـــديدة   فعاشـــوا بأعنـــاق مقلـــدة منـــا
وقد جربونا قبلهـــا فى وقـــــائع   تعلم غمـــر القوم منا بها الطعنـــا
فكم من مليك قد شددنا اســـاره   وكم من أسير من شقا الأسر أطلقنا

---

(٢٤) ديوانه : ص ٣٠ .

ويستمر فى وصف المحاربين من المسلمين وقدرتهم وعزيمتهم ، وكيف أنهم تحملوا الحرب بعزيمة قادتهم وبايمانهم ، ونلاحظ فى أبياته أنه لا يستهين بقوة الأعداء ، وانما يبين أنهم (أسود وغى) وما ذاك الا ليبين أن المصريين حين صرعوهم كانوا أقوى منهم وحين تغلبوا على عدو قوى فذلك يعد نجاحا لهم وشهادة تحسب لهم • ولقد سار المسلمون وراء قائد شجاع الى حيث الظفر والانتصار ، فهو لا يهاب الموت ولا يرضى بغير النصر •• يقول ابن عنين (٢٥) :

أسود وغى لولا وقائع سمرنا   لما لبسوا قيدا ولا سكنوا سجنا

وكم يوم حر ما وقينا هجيره   وكم يوم قر ما طلبنا له كنا

يسير بنا من آل أيوب ما جد   أبى عزمه أن يستقر بنا مغنى

سرى ندو دمياط بكل سميدع   امام يرى حسن الثنا المغنم الأسنى

ولا ينسى الشاعر أن يبين فى وصفه كم كانت الفرحة غامرة للمصريين الذين عاشوا فرحة الانتصار بعد أن مكثوا فى الحزن طويلا لاقامة الفرنج بينهم فى أراضيهم ، فكان انتصار المحاربين المسلمين تطهيرا للبلاد من رجسهم وما أجمل أن يبين أن هذا الانتصار أصبح عادة المصريين وديدنهم ، حتى أن سيوفهم ورقاب الفرنج عرف كل منهما موقعه بالنسبة للآخر فالسيوف معدة لقتلهم ، والرقاب معدة لتلقى الطعنات • يقول :

فأجلى علوج الروم عنها وأفرحت   قلوب رجال حالفت بعدها الحزنا

وقد عرفت أسيافنا ورقابهم   مواقعهم فيها ، فان عاودوا عدنا

وتتلاقى أفكار الشعراء فى وصف ما رأوه من حال المسلمين

---

(٢٥) ديوان ابن عنين : ص ٣١ ، ص ٣٢ •

وقدرتهم على هزيمة الاعداء ، وحال الكفار الذين أتـوا بغـرورهم وصلفهم ، ولكنهم لم يجنوا غير الهزيمة وعادوا يجرون أذيال خيبتهم واندحارهم .. يصف ذلك البهاء زهير أيضا فيقول (٢٦) :

فـرويت منهم ظـامىء البيض والقنا
وأشبعت منهم طـاوى الذئب والنسر

وجـاءت ملوك الروم نحـوك خضعا
تجـرر أذيـال المهـانة والصـغر

أتـوا ملـكا فـوق السماك محله
فمن جوده ذاك السـحاب الذى يسـرى

فمـن عليهـم بالأمـان تكـرما
على الرغم من بيض الصوارم والسمر

ولقد تركت هذه المعركة أثرها فى نفوس الشعراء طويلا ، فابن عنين حين أراد أن يمدح الملك المعظم عيسى بن الملك العادل ، لم ينس ان له دوره فى الانتصار الذى حازه المسلمون فى مصر ، وأن من مآثره التى يستحق أن تذكر له مواقفه فى هذه المعركة ودوره الذى تظـل ذكراه فى النفوس قوية ، فيقول (٢٧) :

ومستخبر عنـا ومـا من جهـالة كشفت الغطا عنا فزال ارتيابـه
وأذكرته أيام دميـاط بيننـا وبين العدى والموت تهوى عقابـه
وجيشـا خلطناه رحـاب صدوره بجيش من الأعداء غلب رقابـه
وقد شرقت زرق الأسـنة بالدمـا وانكـر حـد المشرفى قـرابه
تركناهم فى البحـر والبـر لحمة تقاسمهم حيتـانه وذئابـه

---

(٢٦) ديوان البهاء زهير : ص ١٢٣ .
(٢٧) ديوانه : ص ٢٠ .

ومن الشعراء الذين اهتموا بوصف المعارك والحروب التى دارت فى مصر مع الافرنج الشاعر ابن النبيه ، فقد صور ما كان من هلاك العدو الذى كان حصاده من هذه المعارك اما القتل واما الأسر ، فهو ان نجا من أحدهما لم ينج من الآخر ، فالهزيمة والدمار يحيطان به، والمعركة وبال عليه فى كل حالاتها ، ويصف الغارة على المعتدين حين شملهم الهلاك بأنها كانت كالسحب التى تظلل سماءهم ، ثم لا تلبث أن تصب عليهم الفناء والهلاك مدرارا ، فيكون حتفهم متيقنا . يقول [٢٨] :

لله كم أحسنت تلك الاساءات	قتلا وسبيا وأسرا وانتهاب ثرى
للكفر وهى على الاسلام جنات	شننتها غارة كالنار محرقة
أمطارهن مصيبات مصيبات	يوم على الروم ينشى ريحة سحبا

ويزيد ابن النبيه فى الوصف ، فيصور المعركة وكيف انها دارت مؤذنة بهزيمة الاعداء الذين نالت منهم جيوش المسلمين فحصدتهم بأسلحتها ، ويصف الشاعر تعدد الأسلحة ما بين رماح وسيوف ولكل نتيجته ، لقد أحسن المحاربون المسلمون تصويب الرماح الى بطون الفرنج وصدورهم ، فكان فى ذلك مقتلهم ، وأما عند المواجهة عن قرب، فان السيوف كفيلة بحصد هاماتهم رأعناقهم ، وما أجمل تصوير احساس الفرحة والزهو الذى تملك أمواج البحر ، ويصور الشاعر حركاتها رقصا حين غطت دماء العدو صفحة مياه البحر . يقول [٢٩] :

ليث له فى جيوش الشرك هجمات	رأوا جيوش بنى أيوب يقدمها
وللصوارم أعناق وهامات	فللرماح كلاهم أو صدورهم
والموج ترقصه تلك المسرات	تخلق البحر ذاك اليوم من دمهم

---

(٢٨) ديوانه : ص ٦٧ .

(٢٩) ديوانه : ص ٦٧ .

ويصف ابن النبيه الجيش وشدة هجماته على العدو ، فهم أسود قوية ، ويصور نشوة السلاح حين يصلصل فى أجواء المعركة فكأن صليل السيوف ألحان تشدو ، واذا كانت هذه الاسلحة فى حقيقتها صفائح تحمل الموت للعدو ، لكنها من ناحية أخرى صحائف يسطر فيها تاريخ تلك المعارك .. يقول [٣٠] :

وتحت غيل القنا آساد معركة لها ثبات وفى الهيجاء وثبات

أهلة فى سماء من مفاخرها لها الكتائب أفلاك وهالات

تهتز أعطافهم يوم الجلاد اذا غنت لهم من بنات القين قينات

صفائح هى ان دب المنون بها صحائف كتبت فيها المنيات

ولدقة الوصف يذكر الشاعر استخدام المحاربين الخيول فى تلك المعركة ، فالشاعر يصف كل ما يدور حوله فى حلبة القتال ، وهو حين يصف الخيل يضفى عليها الاحساس فيجعلها أيضا تتوق الى الانتصار وكأنها تعرف طريقها ووجهتها فى دمياط . يقول [٣١] :

ان مس شمس الضحى من لمعها رمد
كحلتها بالعجاج الأعوجيات

جود كرام نلقى عن فوارسها
شبا الأسنة أعناق وليات

مستشرفات بأذناب موكلة
لها الى الثغر من دمياط حاجات

وفى أبيات أخرى يصف ابن النبيه المعركة بكل تفاصيلها ، فيصور كيف أن الاعداء تملكتهم الرهبة حين رأوا أعلام قادة مصر ترفعها

(٣٠) ديوانه : ص ٦٦ .
(٣١) ديوانه : ص ٦٦ .

الجيوش معلنة النصر ، ويثير المقاتلون غبار الحرب ملتمسين القـوة والعزيمة من قائدهم .. فيقول [٣٢] :

رأت بنو الأصفر الأعلام طالعـة والنقع يرمد عين الشمس فاحمـه

والجيش يلتف مرطاه عـلى ملك كالليث تزأر حواليـه ضراغمـه

ونتضح فى الشعر صورة الانتصار حين يجعل الجو كأنه يمطر سهاما تملأه ويصف لمعان السهام التى تنطلق فى سماء المعركة كأنها برق يسطع بريقه فيعلن البشرى والفرح ، كما أن هذا الانتصار أحست به الخيل المشاركة فى المعركة ، فكأنما تريد أن تطير لولا أن شكيمتها تمنعها وتحد من انطلاقها ، ويصف كيف أن الظبا وسلاح المعركة كان كثيفا عاق تقدم الفرنج وكان سدا منيعا عريضا كأنه بحر يحول بين العدى وأرض دمياط .. يقول [٣٣] .

والجو يبكى سهاما كلمـا ضحكت له كل بـرق يمـانى غمائمـه

وكل طرف اذا طـال الطراد بـه يطير من حـده لـولا شـكائمه

ودون دميـاط بحـر حـال بينهم من الظبا ليس ينجـو منه عائمه

ويشير ابن النبيه الى ما كان من مساندة الملك مـوسى الأشرف لأخيه الملك الكامل فى هذه الحـرب ، وكيف أن الله آزرهـم وحقق الانتصار على أيديهم وتحقق للمصريين أملهم فى تسلم بلادهم وأصبح الثغر ويقصد به مدينة دمياط يضحك فرحا بهذا الانتصار العظيم ، ثم يجيل بصره فى أبياته ويبين صورة الأعداء الذين عادوا من هذه البلاد بانكسارهم يحملون هزيمتهم ويجرون أذيال الخيبة ، وحين يجترون ذكرى أيامهم فى هذه الحرب تفزعهم ذكراها ، فقد عادوا الى مملكتهم

---

(٣٢) ديوانه : ص ٨٣ .
(٣٣) ديوانه : ص ٨٣ .

بمأساة فى كل بيت ينعى أبناءه الذين قتلوا فى أرض مصر • وما أقسى أن يبكى القساوسة ورجال دينهم الذين قادوا حملتهم لنصرته ، فلم ينالوا من ملوكهم غير الهزيمة والانكسار • يقول (٣٤) :

ذلـــوا الملك أعان اللـــه صـــاحبه   موسى سليمان والســـيف خاتمـــه

وسلموها وردوا أهلهـــا ومضـــوا   والثغر من فرح يفتـــر باســـمه

كأنهم أبصروا ما قد مضى زمنـــا   كما يـــرى مزعج الأحـــلام نائمه

عادوا بحزن الى أوطانهم ومضوا   وكل بيت نعاهم فيه مأتمه

تبكى القسوس على أسرى ملوكهم   وذاك أمر قضى بالعدل حاكمـــه

وأما الشاعر البهـــاء زهير ، فيرد فى شـــعره ما يتضـــح به دقة الوصف ، حيث يصـــف تلك المعركة ويشـــير الى طول أيام المقاومة التى دامت ثلاث سنين (٣٥) ويصف جهاد المسلمين خلال تلك السنوات ، وكيف تحمل المصريون العناء فى سبيل أن يشرق عليهم نهار الانتصـــار ، ثم يبين مشاعر الفرح حين تحقق لهم ذلك حتى أنه يرى تلك الليلة هى ليلة القدر التى تتحقق فيها الآمال ، وتكثر فيها البركات •• يقول : (٣٦) •

ثلاثـــة أعـــوام أقمت وأشـــــهرا   تجاهـــد فيهم لا يزيد ولا عمـــرو

صـــبرت الى أن أنزل الله نصره   لذلك قد أحمـــدت عاقبة الصـــبر

فيا ليلة قد شـــرف الله قدرهـــا   ولا غرو ان سميتها ليلة القدر

ثم يبين أن وراء هذا الانتصار كفاحا وجهدا عظيما ســـاعد عليه ما كان من قوة أساطيل المصريين التى تمـــاثل ما عرف فى الاســـاطير ،

---

(٣٤) ديوانه : ص ٨٣ ، ٨٤ .

(٣٥) من سنة ٦١٥ هـ : سنة ٦١٨ هـ .

(٣٦) ديوان البهاء زهير : ص ١٢٢ .

كذلك يصف قوة الجيش واستخدام الخيول المتمرسة على الحروب ويصف حركتها حيث تشتد وينضح جسمها بالعرق الشديد الذى يلمع فى الظلام فيضىء وكأنه ضوء الفجر • ثم يعبر الشاعر عن حبه لمدينة دمياط التى يعدها الصدر والنحر والقلب للمسلمين • يقول •• (٣٧)

سددت سبيل البر والبحر عنهم ... بسابحة دهم وسانحة غر

أساطيل ليست فى أساطير من مضى ... بكل غراب راح أفتك من صقر

وجيش كمثل الليل هولا وهيبة ... وان زانه ما فيه من أنجم زهر

وبانت جنود الله فوق ضوامر ... بأرضاحها تغنى السراة عن الفجر

فلا زلت حتى أيد الله حزبه ... وأشرق وجه الارض جذلان بالنصر

كفى الله دمياط المكاره انها ... لمن قبلة الاسلام فى موضع النحر

وأما الشاعر الايدمرى فانه يصف جهاد المسلمين ، وما صنعوه دفاعا عن دمياط ، ويبين احساس الفرنج حين أعطوا لأنفسهم حق الاستيلاء على تلك المدينة العظيمة ، ويصف جيشهم الذى أتوا به ويصف كثرتهم اذ ملأوا الأرض ، لكن قوة الله العلى الكبير كانت هادمة لقوتهم • ثم يصف لقاء جيش الملك الكامل مع هذه الجيوش وقد أيد الله بنصره جيش المسلمين ورد جيش الكفار مدحورا مشتت الشمل ، ورجع جنوده ما بين جريح أو مأسور أو مكبل فى الأصفاد يرسف فى أغلال الهزيمة والانكسار • يقول ، (٣٨)

كم منة لأبى المعالى الكامل الـ ... سلطان فى عنق الهدى لا تجحد

أيام قال الشرك بغيا للهدى ... « دمياط » لى ولك الغداة الموعد

---

(٣٧) المرجع السابق : ص ١٢٣ •

(٣٨) نقلا عن الحياة الأدبية فى عصر الحروب الصليبية : د/ احمدبدوى ص ٢١٨ •

وأتى بما ملأ البسيطة كثرة   والله ربك هادم ما شيدوا
جيش اذا مسحت يداه بقعة   جف المياه بها وذاب الجلمد
كالسيل الا أنه لا ينقضى   والليل الا أنه يتوقد
وأتى بك الاسلام وحدك موقنا   أن سوف تهزم جمعهم وتبدد
حتى اذا التقيا طلعت عليهم   بالنصرتشقى من تشاء وتسعد
فرددت شخص الشرك وهو مسربل   خزيا ودين الله وهو مؤيد
حكمت بأسك فيهم فمكلم   ومجدل ومشرد ومصفد

لقد عاش الشعراء أحداثبلادهم السياسية ، وعبروا عما فيها من مواجهة لأعداء دينهم ، وأوضحوا تطلع أصحاب الحق الى نصرة الدين وخوفهم على دينهم وعقيدتهم من أن يمسها سوء .

وهناك الى جانب وصف الحروب والمعارك وما دار فيها ، لم ينس الشعراء وصف ما دار فى النفوس من أحاسيس وانفعالات ، فليس الشعر الا تعبيرا عما يعتلج فى نفوس الشعراء الذين يعبرون بدورهم عما يحيط بهم . فالشعراء لم يقصروا دورهم على وصف ما كان من حرب بالعتاد أو بالخيل .. أو من هو المنتصر أو المنهزم ، وانما كان هناك احساسهم بأنهم أصحاب هذه الأرض وهم منها ، يحرصون عليها أكثر مما يحرصون على أنفسهم ، لقد جاء وصف الشعراء مرتبطا عندهم بدافع الوطنية وحب البلاد ، فالشاعر ابن عنين مثلا ولد بمصر وارتبطت بها مشاعره ، والبهاء زهير مصرى نعم بخير هذه البلاد وعاش فوق ترابها يرتشف معانى الحب والانتماء اليها .. كذلك ابن سناء الملك وابن النبيه وغيرهم كثيرون .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ان الشعراء لم يكتفوا بالتعبير عن الارتباط بمصر على أنها موطن ينتمون اليه فحسب ، وانما كان هناك

ما هو أقوى • انه الرابطة الايمانية ، وناحية الايمان والعقيدة فالصليبيون حين غزوا بلاد المسلمين فى الشام توجهوا الى مصر بعد ذلك آملين أن يصونوا غزوهم ، فكان ذلك فى نظر المسلمين فى كل مكان دافعا لأن تعلو صرختهم مطالبين بالذود عن الاسلام دينهم وملاذهم •

واذا أردنا أن نصور وصف الشعراء والتعبير عن أحاسيسهم فى تلك الحروب سنجد أن منها أحاسيس الألم والاسى لما أصاب الوطن الغالى ، كما سنجد مشاعر الفرح والابتهاج حين ترتفع راية النصر انها مصر ، وانه الاسلام ، فلابد أن تحيا هممهم فارتباطهم بهذا الوطن عريق •

ومن أمثلة ما عبر عنه الشعراء عن احاسيسهم بالفزع والرعب ما كان حين غزا الصليبيون دمياط سنة ٦١٥ هـ فى عهد الملك الكامل ، وزاد بطشهم على أهل البلد ، لقد أحس الشعراء مدى الخطر الذى داهم الأمة ، واستطاعوا أن يكونوا لسان المصريين كلهم ، وعبروا عما يعتمل فى النفوس من حرص على مواجهة هذا الاخطبوط الغادر ، فنجد رسالة يوجهها الأمير جمال الدين الكتان من أهل دمياط الى الملك الكامل، وكانت رسالته تحوى شعرا يصور فداحة الخطب ، أنه يصف ما آل اليه حال مدينة دمياط ، ويبين أنه اذا كانت ظواهر البلد قد تهدمت فان الهدم لن يقتصر على هذا ، بل سيمتد الى جذوره واقتلاع تراثه وحضارته ،ويصور اساءة العدو الى أهله ، فقد حصره وأصبح الفناء والدمار يهدده •• يقول ، [٣٩] •

يا مالكى دمياط ثغر تهدمت شرفاته كادت تجث أصوله

يا أيها الملك الذى ما ان ترى بين الملوك شبيهه وعديله

هذا كتاب موضح من حالتى ما ليس يمكننى لديك أقوله

---

(٣٩) السلوك : جـ ١ ص ١٩٩ •

اشكو اليك عـدو سوء أحدقت بجميعـه فرسـانه وخيـوله

فالبر قـد منعت اليـه طريقـه والبحر عز لنصـره أسـطوله

فاحرس حمـاك بعزمة تشفى بها داء لمثلـك يرتجـى تعليلـه

ويريد الشاعر أن يصف قسوة هذا الأمر فيضفى الاحساس على مواقع المدينة التى تنوح وتبكى على ما أصابها ، ويوضـح أن التهاون فى نصرة الدين ، والتخاذل فى صد العدوان معناه انتصار الصـليب وارتفاع رنين الأجراس فى الكنائس وزوال هيبة الاسلام ، وهذا ما لا تقبله روح مسلم أو قلبه .. لذا يقول فى أبياته :

فخضـوعه باد على أبراجـه وحنينـه وبكـاؤه وعويلـه

فالعـذر فى نصر الاله ودينـه ما ساغ عنـد المسـلمين قبـوله

ولئن قعـدت عن القيـام بنصره جفت نضـارته وبـان ذبـوله

ووهت قوى القرآن فيـه ورفعت صـلبانه وتلى بـه انجيلـه

وعلا صـدى الناقوس فى أرجائه وخـفى على سـمع الورى تهليله

وكان لهذه الأبيات وهذه الصرخة المدوية أثرهـا فى نفس الملك الكامل ، فقد حمى شعوره وانطلق يدعو الناس الى الجهـاد ويسـتنفر الهمم حتى أتى اليه النصر المبين .

وبنفس شعور الاسى يعلن الشاعر ابن النبيه عن استيائه لوجود الفرنج فى دمياط ويبين مدى فداحة غلبتهم على المسلمين ، ويوجه لومه الى الحكام ويرفض تقاعسهم فى النفرة والجهاد ، يقول [٤٠] :

---

(٤٠) ديوانه : ص ٥٩ .

ياملوك الاســـلام عنها قعــدتم كقعــود الــكفار فى يــوم بــدر
وجيوش الفرنج فى ثغــر دميا ط يســاقونهم بكـــأس مـــر

وأما ابن الخيمى فانه لمــا سقطت دمياط عبر فى شعره عن الأسى الذى أبكاه دما ، فهى أرض المسلمين ، فيها يعبــد الله عز وجل ويتلى القرآن ، ولقد اجتمعت عليها أوبئة الغزو والمرضى ، يقول [٤١] :

ولقــد بــكيت لثغر دميــاط دما ووجدت وجــد الفــاقد المحزون
أرض العبـــادة والزهادة والتقى وتـــلاوة القــرآن والتـــأذين
وبئت وبوأها العــدو فأهلهـــا شـــهداء بين الطعن والطـــاعون

وفى لحظة الانتصار والشعور بنشوة الفوز والظفر لا يســتطيع الشعراء الصــمت أو كتمان الأحاسيس ، فتعلو أصــواتهم وتنطلق وينظمون أشعارهم تصف الفرحة والبهجة ، ان الانتصـــار فى تلك الحروب معناه اعلام كلمة الدين ، والانتصار الحقيقى هو أن تظل آيات القرآن تتلى وتتردد فى جنبات المساجد وأن يعلو الأذان فى أنحــاء البلاد ، فالشعراء ـــ كغيرهم ـــ يستنكرون أن تطغى أصوات مزامير النصارى على صوت الأذان والصلاة ، أو تنتشر عاداتهم فى تقديم القرابين فى الكنائس ولذا فان للانتصار معنى يحسه المسلم ويحرص على التعبير عنه ، يقــول ابن النبيه حــين رفــرفت رايــات النصر للمسلمين [٤٢] :

للــذة العيش والأفراح أوقــات فانشـــر لواء له بالنصر عــادات
أمام جيشــك أنى ســار أربعــة نصــل ونصــر وآراء ورايات
لله من ثغــر دميـــاط وبرزخها فتح له تفتح الســبع الســموات

---

(٤١) بغية الدعاة : ص ٧٨ .
(٤٢) السلوك : جـ ١ ص ٢١٦ .

شرحت صدر رسول الله وانحسرت   بنصرة الـدين والدنيـا غمامات
الله أكبـر أن تمسى مـزامرهم   تتـلى وتنسى من القرآن آيـات
وأن يخـور على القربـان عجلهم   جهـرا ويخـفى أذان وتـلاوات

ويستخلص ابن النبيه أفكاره من التاريخ فيشـير الى ما كان من لقاء موسى عليه السلام بسحرة فرعون وكيف انه تغلب عليهم بصـدقه لا بالخداع الذى صنعوه ، يقول فى مدحه للملك موسى الأشرف الذى شارك أخاه الملك الكامل فى هذا الانتصار (٤٣) :

دميـاط طور ونار الحرب موقده   وأنت موسى وهذا اليوم ميقـات
الق العصـا تتلقف كل ما صنعوا   ولا تخف ما حبـال القوم حيـات

ويقول ابن النبيـه فى أبيات من قصيدة أخرى مهللا باحسـاس الانتصار فى دمياط ، حتى أنه يعد هذا الحدث العظيم قد غطى على كل شرف قبله ، فهو قد جمع كل الشرف ، فلا يحق لأحد أن يفخر بمـا سبقه من مفاخر ، يقول (٤٤) :

يستوجب النصر من صحت عزائمه   ويقتنى الشكر من تمت مكـارمه
يا يوم دمياط ما أبقيت من شرف   لـن تقـدم الا أنت هـادمه

وانتصار المسلمين فى معركة دمياط سنة ٦١٨هـ صوره البهاء زهير

---

(٤٣) يقول ابن تغرى بردى : (ويعجبنى قول البارع كمال الدين على ابن النبيه فى مدحه لمخدومه الملك الاشرف موسى لما حضر مع اخيه المعظم الى دمياط فى هذه الكائنة قصيدته التى أولها :
للذة العيش والأفـراح أوقـات   فانشر لواء له بالنصر آيـات
الى ان قال منها :
دمياط طور ونار الحرب موقدة   وانت موسى وهذا اليوم ميقات
« الأبيات المذكورة » ، النجوم الزاهرة : جـ ٦ ص ٢٤٣ .
(٤٤) ديوانه : ص ٨٣ .

عظيما وأن فرحته لم تكن تخص مصر وحدها ، وانما عمت بلاد الاسلام كلها ، وعاصمة الخلافة فى بغداد ، وينادى بأن ينقل الناس احساس الزهو بالانتصار الذى عم مصر الى مكة معقل الاسلام ومهبط الوحى ، والى المدينة المنورة حيث ينهى الى الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم أن رعيته تسير على نهجه وتستلهم سيرته فى حماية دين الاسلام والانتصار له يقول .. [٤٥] :

بك اهتز عطف الدين فى حلل النصر
وردت على أعقابها ملة الكفر

وما فرحت مصر بذا الفتح وحدها
لقد فرحت بغداد أكثر من مصر

وأقسم لولا همة كاملية
لخافت رجال بالمقام وبالحجر

فمن مبلغ هذا الهناء بمكة
ويثرب ينهيه الى صاحب القبر

فقل لرسول الله ان سميه
حمى بيضة الاسلام من نوب الدهر

به ارتجعت دمياط قهرا من العدى
وطهرها بالسيف والملة الطهر

ورد على المحراب منها صلاته
وكم بات مشتاق الى الشفع والوتر

كفى الله دمياط المكاره انها
لن قبلة الاسلام فى موضع النحر

---

(٤٥) ديوان البهاء زهير : ص ١٢١ .

فلله يـوم الفتـح يـوم دخولهـا
وقـد طـارت الأعـلام منهـا على وكر

ـ ولقد كان يوم الانتصار يوما مشـهودا ، وبعـد أن انتهت تلك المعركة حق لأصحاب الانتصار أن يخلدوا الى الراحة والتـأمل ، وحق للاخوة الثلاث « الملك محمد الكامل ، والأشرف موسى ، والمعظم عيسى » أن يتلقوا تهنئة الفرحين المستبشرين ، وكان اجتماع النصر فى مدينة المنصورة ، وقدم الشعراء يهنئون بهذا الفتح ، وكان من أول المهنئين الشاعر ابن عنين بأبيات قصيدته التى أولها :

سلوا صهوات الخيليوم الوغى عنا   اذا جهلت آياتنا والقنا اللدنا

ولم يفته أن يشيد بالملك الأشـرف موسى ، فمدحه بأبيـات قـال فيهـا[٤٦] :

قسـما بمـا ضمت أباطح مـكة   وبمن حواه من الحجيـج الموقف
لو لم يقـم موسى بنصـر محمد   لرقى على درج الخطيب الأسقف
لـولاه ما ذل الصـليب وأهلـه   فى ثغـر دميـاط وعز المصـحف

وفى هذا المجلس الكبير صدحت الأنغام وتبارى الملوك فى اظهار حماسهم وفرحتهم ومن ذلك مافعله الملك الأشرف موسى حين أمر جاريته بالغناء فكان طبيعيا أن تتغنى بدليكها وتبـرز دوره فى هـذا الموقف ، واختارت أبياتا تغنت بها وقالت[٤٧] :

ولمـا طغى فرعون عـكا ببغيـه   وجاء الى مصر ليفسد فى الأرض
أتى نحوهم موسى وفى يده العصا   فأغرقتهم فى اليم بعضا على بعض

---

(٤٦) ديوانه : ص ١٤ ، والسلوك : جـ ١ ص ٢١٢ .
(٤٧) السلوك : جـ ١ ص ٢١٠ ، والخطط : جـ ١ ص ٢٣١ .

ويثير ذلك حماس الملك الكامل فيأمر جاريته أيضا بالغناء ، ويبدو ذكاء هذه الجارية حين تبرز دور الاخوة الثلاث وتستخدم التورية الرائعة فى بيان دور الملك موسى الأشرف والمعظم عيسى فى مساندة الملك محمد الكامل ، فتقول :

أيا أهل دين الكفر قوموا لتنظروا   لما قد جرى فى وقتنا وتجددا
أعبـاد عيسى ان عيسى وقومـه   وموسى جميعا ينصرون محمدا (٤٨)

وفى هذه الجلسة ينهض القاضى الأجل هبة الله بن محاسن قاضى غزة وكان حاضرا فى جملة الالحاضرين وينشد (٤٩) .

هنيئـا فان السـعد راح مخلـدا   لقـد أنجز الرحمن بالنصر موعدا
حبانا اله الخلق فتحـا بدا لنا   مبينـا وانعـاما وعزا مجـددا
تهلل وجـه الأرض بعـد قطوبه   وأصبح وجه الشرك بالظلم أسودا
ولما طغى البحر الخضم بأهله الـ   طغـاة وأضـحى بالمراكب مزبدا
أقام لهـذا الدين من سـل عزمه   صقيلا كما سل الحسـام المجردا
ونادى لسان الكون فى الأرض رافعا   عقيرته فى الخافقين ومنشـدا
أعبـاد عيسى ان عيسى وحزبه   وموسى جميعـا ينصران محمدا

وبلغت براعة الشاعر فى القاء أبياته انه كان يشير الى كل ملك من

---

(٤٨) فى الخطط : ج ١ ص ٢٣١ ان هذا البيت من قصيدة لشرف الدين ابن جبارة أولها : (الى الوجد الا ان أبيت مسهدا ...) .

(٤٩) السلوك : ج ١ ص ٢١٠ ، والنجوم الزاهرة : ج ٦ ص ٢٤٢ . وفى البداية والنهاية ان قائل الأبيات هو راجح الحلى ج ١٣ ص ٩٥ . وفى شذرات الذهب انه راجح الحلى وأنه اشار الى الاخوة الثلاث ج ٥ ص ٧٩ .

الملوك الثلاثة «الملك الكامل محمــد والملك الأشرف موسى والملك المعظم عيسى » حين يذكر اسمه (٥٠) وكأنه يقوم بأداء تمثيلى يــريد به أن يضفى على المكان روح المشاركة واعلان البهجة •

ولا ينسى الشعراء تصوير ووصف أحاسيس التهكم والسخرية التى ملأت نفوسهم من الفرنج الذين لم يكفهم ما نالوه من هزيمــة على يد المصريين فى دمياط ، لكن تسول لهم أنفسهم أن يعودوا الى مصر محاربين يقودهم ملك فرنسا لويس التاسع الذى يعجز عن الغزو ، وعن الدفاع عن نفسه بل يؤخذ هو نفسه أسيرا مكبلا بالقيود الى المنصورة وذلك فى سنة ٦٤٧ هـ ، وحين أسر بعث الملك الأيوبى مع الكتاب الذى يفيد أسره غفارته ، فلبسها الأمير جمال الدين بن يغمور ، وهنا يقول الشيخ نجم الدين بن اسرائيل واصفا ما كانت عليه هذه الغفارة يوم أن كانت الملك يزهو بمملكته ، ثم ما صارت عليه هذه الغفارة بعــد أن هــزم وتلطخت بدماء المعركة ، يقول (٥١) :

ان غفــارة الفرنسـيس جــاءت   فهى حقــا لســــيد الأمراء
كبيــاض القرطاس لــونا ولــكن   صــبغتها ســيوفنا بالدمــاء

وقال آخر : (٥٢)

أســيد أمــلاك الــزمان بأسرهم   تنجــزت عن نصر الاله وعــوده
فلا زال مولانا يبيح حمى العدى   ويلبس أثــواب الملــوك عبيــده

وقــد يكون الشعر فى حملة لويس التاسع على مصر قــد غابه عن تصوير أحداثها مثلما كان فى الحملات السابقة ، ولكن حين أطلق سراح

(٥٠) الخطط : جـ ١ ص ٢٣١ .
(٥١) الخطط : جـ ١ ص ٢٢٢ .
(٥٢) المرجع السابق ، نفس الجزء والصفحة .

الملك الفرنسى وينسى ما حدث له وتسول له نفسه العودة لغزو مصر ، وتراوده أحلامه وأوهامه فى تحقيق هذه الرغبة ، لا يملك المصريون أنفسهم من السخرية به والتعبير عنها بشعر ينظمه ابن مطروح الذى شاهد تلك الحملة التى هزم فيها لويس التاسع ، كما أنه كان صديقا للأمير فخر الدين الذى لعب دورا كبيراً فى نصر المسلمين لكنه أصيب بطعنة فى تلك المعركة قضت عليه (٥٣) وهنا نجد الشاعر ابن مطروح يعيش تلك الأحاسيس التى تضم أحاسيس اشتراكه فى معركة انتصر فيها المسلمون ، وأحاسيس صداقته لمن قضت غليه تلك المعركة ، كذلك أحاسيس الشماتة والسخرية من ملك فشل مرة وغرته الأمانى . ونظم ابن مطروح أبياتا يقول عنها ابن تغرى بردى (٥٤) .

« لله دره فيما أصاب عن المسلمين مع اللطف والبلاغة وحسن التركيب » يصف ابن مطروح فى سخريته من الملك الفرنسى رغبته فى العودة الى غزو مصر ، ويبين كأنه يحمد له تلك المغامرة التى سوف يقضى بها على النصارى الذين يشركون بالله ويعبدون المسيح ، ويشمت فيه ويسخر من أفكاره حيث يسوقه الحظ الى أن يقتل رفاقه وأصحابه فى الحرب التى سبق له أن خاض تجربتها ، فلم يكن رفاقه الا قتلى أو أسرى فى أيدى المصريين . ويزيد ابن مطروح فى سخريته حين يشجعه على معاودة الكرة ويؤيد رغبته فى معاودة غزو مصر فسوف يسهم بعمله فى القضاء على من يأتى معه من النصارى وعباد الصليب ، يقول : (٥٥)

قل للفرنسيس اذا جئته مقال صدق من قئول نصوح

آجرك الله على ما مضى من قتل عباد يسوع المسيح

---

(٥٣) شذرات الذهب : جـ ٥ ص ٢٣٨ .

(٥٤) النجوم الزاهرة : جـ ٦ ص ٣٧٠ .

(٥٥) المرجع السابق ، الخطط : جـ ١ ص ٢٢٣ ، فوات الوفيات : جـ ١ ص ٢٣٢ .

مـذ جئت تبتغى أخـذها	تحسب أن الزمر يا طبل ريح
فساقك الحين الى أدهم	ضاق به ناظريك الفسيح
رحت بأصحابك أودعتهم	بقبح أعمالك بطن الضريح
خمسون ألفا لا يرى منهم	الا قتيل أو أسير جريح
فردك الله الى مثلها	لعل عيسى منكم يستريح

وتزداد السخرية فى الأبيات حين يبين أن القائد الفرنسى وأصحابه ينهجون نهجا فيه هلاكهم ، وأنه لوكان هذا الأمر لعقيدة دينية يرضاها قساوستهم فليعلموا أن تلك شر النصيحة ، ولكن عليهم أن يستمروا رغم ذلك فى أخذ النصيحة منهم ، وعليهم أن ينتبهوا لما ينتظرهم فى مصر ، فلن يجدوا الا الدمار والهلاك ، وعليهم أن يأخذوا الخبر اليقين ممن سبقت له التجربة ، أنه « لويس » نفسه ، ففى مصر دار ابن لقمان التى أسر فيها ، انها باقية على حالها تنتظره ، ولا يزال من كان موكلا بحراسته وتكبيله فى الأصفاد والأغلال ينتظر قدومه ليقوم بمهامه ، فالهزيمة لا محالة فى انتظاره . يقول :

أن كان باباكم راضيا	فرب غبن قد أتى من نصيح
وقل لهم ان أضمروا عودة	أنصح من شق لكم أو سطيح
فاتخذوه ناصحا انه	لأخذ ثأر أو لقصد صحيح
دار لقمان على عهدها	والقيد باق والطواشى صبيح [٥٦]

---

(٥٦) فى وفيات الوفيات : جـ ١ ص ٢٣٢ (ان هذه الأبيات اشتهرت وسارت بها الركبان خصوصا البيت الأخير ، لهذا قال بعض المغاربة لما قدم الفرنسيس تونس) :

يا فرنسيس هذه أخت مصر	فتيقن لما اليه تصير
لك فيها دار لقمان قبر	وطـو اشيك منكر ونكير

ويستمر شعور السخرية من الملك الفرنسى لويس التاسع ، ويتناوله شعراء آخرون عجبوا من جرأته وعزمه على غزو مصر ثانية ليثأر لنفسه مما حل بها على أيدى المصريين ، فيقول أحدهم : —[٥٧]

قل للفرنسيس ان كلا له من المسلمين شاكر
لأنه محسن الينا بقوده نحونا العساكر
فان يعد طالبا لثأر من أرض دمياط فليبادر
فذلك البحر تعرفوه والسيف ماض والجيش حاضر
أعاده الله عن قريب لمثلها انه لقادر
بحيث لا يبقى للنصارى من بعد كسر الصليب جابر
ويستريح المسيح منهم من كل علج وكل كافر

ان مثل هذا الشعر يصف اعتداد المصريين بأنفسهم وثقتهم فى قوتهم التى تستطيع أن تبيد كل قوى غاشمة تريد أن تأخذهم على غرة ، وفى شعر الشعراء ما يوضح أن الشعب حين أحرز الانتصار أصبح قادرا على المواجهة لكل معتد ، ولعل مثل هذه الأشعار التى قيلت فى مجال السخرية ممن حاولوا العودة الى مصر يبغون العدوان عليها توضح أن أصحاب البلد أصبحوا فى يقظة تحول بينهم وبين من ينكر فى غزو بلادهم ، ولعل ذلك يذكرنا بما قاله الشاعر ابن عنين يتهدد كل معتد بأن عليه أن يراجع فكره ، فلئن عادوا الى الغزو ، فاننا أيضا عائدون الى المقاومة والانتصار ، فهو يقول ،[٥٨]

وقد عرفت أسيافنا ورقابهم مواقعهم فيها فان عاودوا عدنا .

(٥٧) فوات الوفيات : جـ ١ ص ٢٣٢ .
(٥٨) ديوانه : ص ٣٢ .

الفصل الثالث

وصف المظاهر الاجتماعية والحضارية

في حديثنا عن الحياة الاجتماعية وضحت المظاهر التي يتصف بها مجتمع مصر من نواح متعددة ، منها ما يتسم بالحضارة والجمال ، ومنها ما يعبر عن ملامح الحياة الخشنة القاسية .. وهذا شيء طبيعي فالوصف لابد أن يكون صادقا فى تصوير الجانبين اللذين يمسان المجتمع ولكل صورته ولكل تصويره .

ولنر الآن ما جاء فى وصف الشعراء لملامح تلك الحياة الاجتماعية والحضارية فى مصر ، وكيف صوروا ما تميزت به هذه المظاهر . ومنها : ـ

١ ـ وصف المدن والمباني : ـ

اهتم الشعراء بوصف المدن وما فيها من ملامح حضارية وحين زار ابن جبير مصر سنة ٥٧٨هـ وصف مدينة الاسكندرية بقوله : فأول ذلك حسن وضع البلد واتساع مبانيه حتى انا ما شاهدنا بلدا أوسع مسالك منه ولا أعلى مبنى ولا أعتق ولا أحفل منه ، وان من أعظم ما شاهدناه من عجائبها المنار الذى قد وضعه الله عز وجل على يدى من سخر لذلك آية للمتوسمين وهداية للمسافرين ، لولاه ما اهتدوا الى بر الاسكندرية ، ويزدحم الجو سحرا وارتفاعا يقصر عنه الوصف ، وينحسر دونه الطرف) [1] .ويزيد التعبير عن جمالها فى وصف ابن المظفر حين زار الاسكندرية سنة ٦٤١هـ ولم يجد ما يعبر به عن عظمة هذا الجمال غير أن يقول « فوجدتها كما قال الله تعالى (ذات قرار ومعين) [2] ، معمورة بالعلماء ، معمورة بالأولياء الذين هم فى الدنيا شامة [3] .

---

(١) رحلة ابن جبير ص ١٤ .

(٢) اشارة الى قول الله تعالى فى سورة المؤمنون الآية ٥٠ : « واويناهما الى ربوة ذات قرار ومعين » .

(٣) النجوم الزاهرة حـ ٦ ص ٣٤٧ .

ولقد شدت هذه المدينة روح الشاعر ابن الساعاتى اليها ا وبهرته عندما كان بثغرها واقترح عليه وصفها[٤] فيبين أن مر نسيمها كاف لفى تصفو الأذهان ، وهى بلد ، جميلة المظهر والجوهر ، فلا يمسها شوب أو أذىبل هى نقية الباطن ، حسنة الظاهر .. يقول : —

سقى الله بالاسكندرية منزلا　　ليبست به ثوب النوى معلم الردن

جلا صدأ الأذهان مر نسيمها　　فلووافقوا سميته صيقل الذهن

فباطنها خال من الشوب والأذى　　وظاهرها حال بديباجة الحسن

ثم يتجه الشاعر الى وصف ملامح الحضارة التى تتصف بها مدينة الاسكندرية ومنها منارتها التى لو تدبرها الرائى وتدبر فنها لوجد أن رؤيتها بعينه تخالف ما يتدبره فيها بفكره ، فالعين ترى أن الانسان هو صانعها ، ولكن الفكرلا يصدق ، فيزداد تعمق الرائى ويرى أن هذا البناء لايستطيعه غير الجن .

ويصف السفن وقد سارت فى البحر ، ويصف لحظة غروب الشمس ، ويرى أن الشفق ما هو الا خجل كسا وجه الدنيا : يقول :

لها البحر تفضى دونه عين قوته
وتعثر فى آذيه أرجل السفن

منارتها فى العين من صنعة الورى
ولكنها فى الفكر من صنعة الجن [٥]

---

(٤) ديوان ابن الساعاتى جـ٢ ص ٨

(٥) يشبه ذلك قول البحترى فى وصف ايوان كسرى حين قال : —

ليس يدرى أصنع أنس الجن　　سكنوه أم صنع جن لانس

(ديوان البحترى المجلد الأول ص ١٩٤) .

وليس وميض البرق فيها بعــارض
بكاهاولكن جاءها ضــاحك الســن

ومــا الشـــفق المحمر للشمس آية
ولكن علا خد الدنى خجــل المــدن

ويصف أحد الشعراء فى مجلس بظاهر الاسـكندرية قصرا منيفا عاليا ، يقول عنه علي بن ظافر انه كاد يمزق بمزاحمته أثواب السماء ، ولقد أبرز الشاعر فى وصفه ما تميز به القصر من ملامح الجمال حتى أنه فاق قصور الفرس والروم ففيه روض يغمر أرضه سندس الخضرة التى تبدو عليها قطرات الندى كأنه لؤلؤ منثور ، وتزينت نخلاته بطلع ثمار التمر فبدت كأنها غيد حسان تحلت بأقراط ، وتتجلى آيات الجمال فى القصر ما بين مياه البحر ونفحات النسيم • ونلحظ هنا أنه ليس الهدف هو ابراز ملامح الطبيعة فى ذاتها ، ولكنها ميزة اتصلت بالقصر الذى حوى كل هذه المظاهر ، ويبين الشاعر فى نهاية أبياته أن القصر العظيم الذى ضم الرفاق جعلهم يحسون كأنهم يجلسون بين أضواء الكواكب وبدر السماء • يقول : ــ (٦) •

قصر بمدرجة النســيم تحــدثت فيــه الريــاض بسرها المســتور
خفض الخورنق والسدير ســموه وثنى قصور الروم ذات قصور (٧)
لاث الغمــام عمــامة مســـكية وأقــام فى أرض من المـــكافور
غنى الربيع به محــاسن وجهــه فافتــر عن نــور يــروق ونور

(٦) بدائع البدائه ص ٣١٦ •

(٧) الخورنق ، قصر النعمان الاكبر معرب خورنكاه اى موضع الاكل (القاموس المحيط) والسدير ، ــ بناء وهو بالفارسية سهدلي وأعربته العرب فقالوا سدير • ويقال قصر وهو معرب واصله بالفارسية سه د له أى قباب متداخلة (لسان العرب) •

فالروض يسحب حلة من سندس   تزهو بلؤلؤ طله المنثور
والنخل كالغيد الحسان تقرطت   بسبائك المنظوم والمنثور
والرمل فى حبك النسيم كأنما   أبدى غصون سوالف المهجور
والبحر يرعد متنه فكأنه   درع يشن بمعطفى مقرور
وكأننا والقصر يجمع شملنا   فى الأفق بين كواكب وبدور

وقد وصف الشاعر ابن سناء الملك « منظرة » من تلك المناظر التى كانت تقام حول البرك والخلجان ، وكانت تتميز بحسن بنائها ، فقد وصف ابن سناءالملك ما كتب على صدر المنظرة ، ويبدو أن رسوما قد صورت عليها تذكرنا بما وصفه البحترى فى حديثه عن ايوان كسرى، فى المدائن بفارس • فهذه الرسوم تمثل روضة غناء بهرته وجعلته يشعر كأنه فى جنة الخلد ، فيشعر انه ينعم بجنة الدارين ، جنة الدنيا فى داره ، وجنة الآخرة التى يتمثلها فى خياله •• يقول •• (٨) :

نعم هذه دار النعيم المعجل   تذكرنى دار النعيم المؤجل
فأرتع فى الدارين فى زمن معا   بعينى وعينى فكرتى وتخيلى
ألافاجلسا فيها سرورا بها ولا   قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل
لقد قصرت من شأوها كل روضة   وقصر عن أملاكها كل أفضل
سماء نضار تحتها أرض فضة   يفرع ماء الورد فيها بجدول

ويصف ما كان فى هذه المنظرة من رسوم ونحت لتصاوير تمثل طيورا لكنهالا تتحرك كأنها مقيدة أو مكبلة لا تستطيع الطير أو الانطلاق كما توجد فيها أيضا مما نحت أسود ليست لها حركة وان كانت فى

---

(٨) ديوان ابن سناء الملك ص ٥٧١ .

سكونها لا تتململ • ومظاهر الابداع فى صور الطير أو الحيوان انها جعلت وسيلة للجمال بما جعل فيها من تدفق المياه وانسكابهـا • وحين نتأمل هذه الصنعة فلابد أن ندرك أن ما شاده الأوائل لا يبارى هذه الدقة فى الصنعة ، فكم قيل عن ايوان كسرى وما حوى من مظـاهر الجمال وحسن الصنع ، ولكن كسرى أو قيصر اذا رأيا هذا الجمال فلابد أن يصيبهما الاحساس بالعجز •• يقول :

وكم طائر من رأســه المـاء طائر   على أنــه فى وكــره كالمكبــل

وكم أســد بالماء من فيــه واثب   وان كان لم ينهض ولــم يتململ

أعيد ملوك الأرض فيهــا ليحلموا   بــأن الذى شــادوه غير مكمل

يقــابل كسرى قيصرا وكلاهمــا   يقلب طرف البــاهت المتــأمل

ويصف ملامح هذا الجمال فيما وجـد أيضا من رسوم تصـور جنودا تمثل جيشا ثبتت أركانه تمر عليه العصور والأزمان ، وكانت دقة الصنع تصورهم فى ملابس زاهية الألوان ، كمـا انتشرت فى هـذه لرسوم مناظر الروض بأنواع أنهاره وأشجاره • يقول :

وقد عرضت فيها الجنود فجحفل   يمــر على آثــاره ألف جحفــل

كــأنهم فى يوم عيــد فقمصــهم   من الوشى لا تحمى الحديد المسربل

وقد أينعت فيها الرياض فكم لهــا   لمختــرف من كــل عــذق مــذلل

ولقد تجلت شاعرية ابن سناء الملك فى اعجابه بمنظرته فكتب فى صدر مجلسها بالذهب تلك الأبيات : ـ [٩]

انظــــر الى المنظــرة النــاضرة   تــزهو مثــل الزهــرة الزاهــرة

أحسن ما فى حســنها انها الــ   دنيــا ، وما ألهت عن الآخــرة

---

(٩) ديوان ابن سناء الملك ص ٥٨٦ ورد فى تقديم القصيدة : (وقال أيضا بما كتبه بالذهب فى صدر مجلس منظرته المطلة على النيل المبارك •)

٢ـ وصف الخليج ومقياس النيل والسواقى : ـ

اشتهرت مصر بكثرة الخلجان فيها ، وكان من ملامح الحياة الاجتماعية فى مصر يوم فتح الخليج أو ما سمى فى كتب التاريخ باسم (كسر الخليج) وكان الاهتمام بهذا اليوم كبيرا حيث يحضره الحاكم أو السلطان ، ويصف القاضى الفاضل أحد مظاهر الاحتفال بكسر الخليج حيث يقول : (فى متجددات سنة ٥٧٧ ركب السلطان الملك الناصر صلاح الدين لفتح بحر أبى المنجا . وفى سنة ٥٩٠ كسر بحر أبى المنجا بعد أن تأخر كسره لقصور النيل فى هذه السنة ولم يباشر السلطان الملك العزيز بنفسه وأناب غيره ، لكنه فى سنة ٥٩٢ كسر هذا البحر وباشر العزيز كسره .) (١٠)

وهذه الصورة توضح أن مثل هذه الأمور كانت تعد مظهرا من مظاهر الاحتفال ويقال أن يوم كسر هذا الخليج كان من متنزهات الخلفاء ، وقد رؤى ان يكون فتحه كيوم خليج القاهرة . (١١)

ويصفه ابن الساعاتى ذلك الموقف فيبين أن هذا اليوم له من البهجة والحسن ما يسر به العين والأذن مما يرى ويسمع فيه من مشاهد المتعة ، ويصف أن الخليج يكون مزينا بما يسد فتحته كأنه غرة ، ولكن ما ان يزال هذا السد حتى ينال منه فيخضع كأنه عاشق غلب على أمره ويصف المياه حين تتدفق بعد الكسر بأنها دموع قد تدفقت بعد أن كسر قلب هذا المحب العاشق يقول .. (١٢)

ان يوم الخليج يوم من الحسـ ـن بديع المرئى والمسموع
كم لديه من ليث غاب صئول ومهاة مثل الغزال المروع

---

(١٠) الخطط المقريزى حـ١ ص ٤٨٨ .
(١١) المرجع السابق نفس الجزء والصفحة .
(١٢) المرجع السابق جـ١ ص ١٤٤ .

وعلى السد غرة قبل أن تملـ ـكه ذلة المحب المخضوع
كسر جسره هناك فحاكى كسر قلب يتلوه فض دموع

ويصف الأسعد بن مماتى ما يكون من بهجة الناس فى هذه المناسبة ، ومنها نزول البعض للسباحة ، ويصف الملاح منهم كأنهم نجوم ساطعة فى مجرة السماء يقول .. [١٣] .

خليج كالحسام له صقال ولكن فيه للرائى مسرة
رأيت به الملاح تجيد عوما كأنهم نجوم فى المجرة

ووصف الشعراء « المقياس » وهو عمود رخام أبيض مثمن فى موضع ينحصر فيه الماء عند انسيابه اليه [١٤] ووصفوا أحوال النهر معه، وقد كانت المواقف التى تمر بالشعراء تدفعهم الى القول وتستحث أفكارهم الى التعبير وأحيانا يعبر الأديب بقوله شعرا أو نثرا فتقع الحيرة فى نفوسنا أى القولين أجمل وأيهما أميز وأيهما نختار ، وذلك مثلمانجد قول على بن ظافر وقد جلس ليلة على المقياس ، وكان النيل فى أقصى درجات نقصه فقال فى هذه لصورة [١٥] (بتنا ليلة على المقياس عند مبالغة النيل فى نقصه واحتراقه وانفراجه عما لم يزل مستورا من أرضه وانفراقه والمراكب قد انتظمت فى لبته وركدت بالارساء فوق لجته وأحاطت به احاطة المحيط بنقطته ، وسفهاء الرياح تبدت بها حتى كادت تذهب بوقارها ، وأجسادها قد لبست لفقد الماء حدادا فارها ، وهى فى أوكارها من المراسى مزمومة وأجنحة قلوعها بعارض الليل مضمومة ، فقلت بديها : —

---

(١٣) خريدة القصر قسم شعراء مصر جـ ١ ص ١٠١ .
(١٤) رحلة ابن جبير ص ٣٠ .
(١٥) بدائع البدائه ص ١٢٢ .

أو ما ترى المقياس قد حفت به   سود المراكب فوق ظهر اللجية

يسمو وقد حفت به كقلادة   سجية فى لبة فضية

وقال الشاعر أحمد بن رستم الديلمى مخاطبا الوزير نجم الدين أبايوسف بن الحسين المجلور وتوفى سنة ٦٢١ يصف أرض المقياس وما حول النهر من منازل تضىء وتنتشر النور فى المكان ويبين أن الخليج من أماكن المتعة التى تستهوى الرفاق .. (١٦) .

حى الديار بشاطىء مقياسها   فالمنسم الفياح بين دهاسها

فالروضتين وقد تضوع عرفها   أرج البنفسج فى غضارة آسها

فمنازل العين المنيفة أصبحت   يغنى سناها عن سنا نبراسها

فخليجها لذاته مطلوبة   تسمو محاسنها علا بأناسها

حافاته محفوفة بمنازل   نزلت بها الآرام دون كناسها

— وصف السواقى من الأمور التى استهدفت قرائح الشعراء فوصفوها وأبدعوا الوصف ، وصوروها مرة عينا تفيض بالدمع ، ومرة نجوما تبدو وتختفى . يقول القاضى الأعز بن أبى الحسن على بن المؤيد . (١٧)

حبذا ساعة المجرة والدو   لاب يهدى الى النفوس مسرة

أدهم لا يزال يعدو ولكن   ليس يعدو مكانه قدر ذرة

ذو عيون من القواديس نبدى   كل عين من فائض الماء عبرة

فلك دائر يرينا نجوما   كل نجم منها يرينا المجرة

---

(١٦) الخطط جا ص ٣٧١ .

(١٧) بدائع البدائه ص ٢٤٦ .

ويقول على بن ظافر فى نفس المعنى [١٨]

ودولاب يئـــن أنـين ثـــكلى ولا فقـــدا شـكاه ولا مضـرة
ترى الأزهار فى ضـــحك اذا ما بـكى بـدموع عـين منه ثـره
حكى فلكـــا تـدور به نجـوم تـؤثر فى سـرائرنا المســرة
يظل النجم يغـرب بعـد نجـم ويطلـع بعـد ما تجرى المجرة

— ومن السمات التى وصفها الشعراء بئر اتصـف بأن مياهه شديدة البرد والحلاوة فى الصيف ويقول فيها الشاعر [١٩] :

ومن عجـائبها البئر التى انفردت بالقر فى الحر والأمواه تضـطرم
كأنمـا ماؤها فى كل هـاجرة ريق الحبيب عقيب الهجر وهى فم

٣ — وصف أدوات الكتابة وملامح الترف : —

لقد نعمت مصر فى العصر الأيوبى بازدهار النواحى الحضارية ، دتعددت هذه النواحى وتمثلت فى ملامح كثيرة منها : —

— وصف أدوات الكتابة : — ان الحياة الأدبية التى عمت مصر فى العصر الأيوبى جعلت الأدباء يغتنمون الفرص للحديث عن جوانب الفكر ، فنجد الشعراء قد اهتموا أيضا بوصف أدوات الكتابة وسبل المعرفة ، فنجد مثلا السديد علم الرؤساء ابن رفاعة من أهل مصر يقول فى وصف القلم : — [٢٠]

لعـــادة كـف ان ألمت بجلمـد غدا مورقا أو معشبا حلة الخصب

---

(١٨) المرجع السابق نفس الصفحة .
(١٩) وفيات الأعيان حـ ١ ص ٢١٣ .
(٢٠) الخريدة قسم شعراء مصر حـ ١ ص ٦٢ .

عجبت له ان ظل جـارا لسـحبها وما فعلت فيه كمـا تفعل السحب

وأحسبه حيـا الطروس بنبعـه وأصبح مسـلوبا وأثمرت الكتب

ويصف القاضى الفاضل أيضا القلم ، ويبين خاصته فى الكتابة ، وأثره فى كتابة المجد والمعالى ، كما أنه له فى الطرائف أيضا مجـال، فهو وسيلة للرعاية والروع •• يقول : ـ (٢١)

وله اليـراع وليــه أبـدا يـرعى به ويـراع ذو الحقـد

كم فـاض بحر بنـانه ففـدا در البيـان يسـاق فى العقـد

ان سـود البيضـاء بيض من ثـوب الليـالى كل مسـود

قلـم أقـاليم البـلاد بـه وثغورها فى الضـبط والشـد

بهـزاله سـمن العـلا وكـذا فى الهزل منـه حقيقـة الجـد

ويصف طبيعة القلم فى الكتابة ، وانه يمد الصحف بمداده ، فهو بذلك كالصادى الذى لا يجد ما يرتوى به على حين أنه يروى بمداده كل من يصبو الى معرفة ما يفيد • ويصف أنه قد شحذه بسكين تقوم حده، ثم يصـف فائدته وأنه يستطاع به الوصول الى غاية المعرفة • يقـول : ـ

ظمـآن يروى كـل ذى ظمـأ فـاعجب لذى ورد بـلا ورد

فرجتـه بشـبا ملطفـة وردت بقسـر القسـور الورد

يا من وجدت بـلاغتى حصـرا فى حصـر ما يوليـه والعـدد

ولا يفوت البهاء زهير أن يصف كتابا ورد من صديق له ، ويصور

---

(٢١) المرجع السابق حـ ١ ص ٤١ .

انه وجد فيه ضالته من حسن الكتابة ، وحسن المعنى •• يقول: (٢٢)

ورد الكتـــاب وأنـــه　　　　عنـدى وحقـكم كـريم

ففضضـــــته ووجـدته　　　　من حســـنه در نظيم

حسـنت معـــانيه وقـد　　　　رقت كمـا رق النســـيم

ــ وصــف الشــموع : ــ

ان الشموع من ملامح الحضارة حيث يبدع فى وصفها الشعراء وقد وصف ابن الساعاتى مجلســا فى مدينة المحلة وقد صـفت فيـه الزهور وبدت له زهرة الأترج بلونهــا الأصفر كأنهــا تبر جامد ، على حين يجد تبرا آخر وهو الشراب يسيل منســكبا ، وتكتمل مظـاهر الحضـــارة حيث تضاء الشـــموع وتتعدد أشـــعتها فتبدو للرائى كأن النجوم تحيط به وكأنه يجلس بين النجوم فى الفلك •• يقول (٢٣) :

لو كنت شـــاهد ليلة قضـيتها　　　　فىسـاحتى ملك مطـاع بل ملك

وكأنمـــا الأترج تبـــر جــامد　　　　ومدام تبر قد تأجج فانســـبك

وكواكب الشـــمع المضاعف نوره　　　　زهر لجالســت النجوم مع الفلك

وفى أحد المجالس يرى الشعراء الشموع تضىء فتتعدد الصور أمامهم ويصفها على بن ظافر مرة بضوئها الساطع ، ويصف المنجنيق الذى وضعت فيه ، ويصورها عروسا تجلى ويعلو رأســها تاج ، كما يصف جسم الشمعة ويصوره عمودا من فضـــة تحيط به هالة الضوء كأنها قمع من الذهب • يقول : ــ (٢٤)

---

(٢٢) ديوان البهاء زهير ص ٢٩٧ •

(٢٣) ديوان ابن الساعاتي حـ٢ ص ٤٠٣ •

(٢٤) بدائع البدائة ص ٢٦٩ •

ومجلس أنس ضم شمل جماعة تعاطوا من الآداب كل رحيق
لدى شمعة فى منجنيق غشاؤه كما أخجل التقبيل خد عشيق
ترى نارها من خلفه كبهارة تراءت لنا من خلف ثوب شقيق
كما جليت خود بتاج ودونها معصفر ستر للعيون رقيق
ويحكى عموداً من لجين مقمعا بتبر بدا فى وسط بيت عتيق

وأما ابن رفاعة فيعطى صورة جديدة للشمعة وضوئها ، فيتصورها من بنات الهند تنطبق عليها تقاليد المجتمع حيث تتزين المرأة وتهدى الى النار يقول : (٢٥) .

كأنها من بنات الهند مثقلة بالحلى تجلى لكى تهدى الى النار

— وصف القناديل : —

فى احدى الليالى اجتمع الرفاق فى الجامع وأمطرت السماء مطرا خفيفا صقل رخام الصحن حتى لمع وجهه ، وتعارضت أشعة القناديل عليه ، وكان هذا المجتمع يضم شعراء ، ولأن عين الشاعر فاحصة وتستطيع أن تعطى وصفا لكل ما تقع عليه ، وصاحبها يستجيب لكل ماتراه فان الشعراء لا تفوتهم فرصة التعبير عن هذا المنظر ، فقال على ابن ظافريصف ذلك : — (٢٦)

أنظر الى حسن القناديل التى لاحت كشهب فى متون سماء (٢٧)

---

(٢٥) خريدة القصر قسم شعراء مصر حـ ١ ص ٦٢ .

(٢٦) بدائع البدائه . ص ٢٦٧ .

(٢٧) يذكرنا ذلك بوصف البحترى لبركة المتوكل فى قوله :
اذا النجوم تراءت فى جوانبها ليلا حسبت سماء ركبت فيها
(ديوان البحترى المجلد الأول ص ٣٥) .

والصحن قد أبدى شهاب شعاعه اذ صار مصقولا بمر الماء
فكأنما هى أسطر من عسجد كتبت بظهر صحيفة بيضاء

ويلتقط ابن الذروى خيط الوصف فيقول فى تصوير نفس المنظر : —

أيا حسن جامع مصر وقد تروى من الوابل المغدق
وضوء القناديل من فوقه كأسطر تبر على مهرق •

لقد بهرت أضواء القناديل فى سقف الجامع الشعراء حين رأوا ما انعكس من صورتها على صحن الجامع المكسو بوابل المطر فكانت صورة جميلة وصفها ابن ظافر كأن ضوء القناديل نجوم سطعت فى سماء وجدت على الأرض وصورها أيضا كأنها سطور من عسجد نقشت على صفحة بيضاء من الورق وليست من الماء • أما ابن الذروى فجعل أيضا ضوء القناديل سطورا من الذهب كتبت فى صحيفة من ورق •

وقد يسأل سائل :هل الشعراء كانوا يجدون فرصة التعبير والنظم والوصف فى الجوامع ؟ أو بمعنى آخر : هل كان الجامع مكانا يستطيع الشعراء أن يقولوا فيه ويصوروا كل ما يريدون ؟ نعم ، المتتبع لكتاب (بدائع البداهة) يرى كثيرا من صور اللقاءات الأدبية التى نستطيع منها أن ندرك دور الجامع فى هذا المجال واعتباره أحد أماكن تجمع الصحاب والرفاق والتزود بكل مجالات المعرفة • ومن أمثلة ذلك ما قاله على بن ظافر • (وجدت يوما بالجامع الأنور بالقاهرة لانتظار الجمعة وكان يجلس بالقرب من مكاننا صبى وضىء نهب وجهه وشعره من البدر نوره ومن الليل ديجوره ، ينعت بالشمس فتأخر حضوره يوما فتعاطينا القول فى غيبته فقلت : — [٢٨]

---

(٢٨) بدائع البداهة ص ١٨٧ •

أفــدى الذى غــاب فغــاب الســرور

فقــال الشهاب :

واتســع الهــم بضــيق الصــدور

فقلت :

وأظلــم الأنــور من بعــده

فقــال الشهاب :

وليس بعــد الشــمس للأفق نــور

ـ وصف كانون النــار : ـ

وهو من ملامح الحضارة فى جلسات الشعراء وقد وصــفه ابن الساعاتى وصور ما يكون من ايقاد النيران وتصاعد اللهب ، كأن حربا دائرة فيها رايات مرفوعةوبيض ظبى ونبل . يقول : ـ (٢٩)

بتنــا ونحن من اللظى فى جنــة   بل جنــة أنفاســها لا تحجب

والحرب فى جدل ننتيجة حكمهــا   ثلج أقــام فليس فيهــا مــذهب

فالســحب رايــات ولمع بروقها   بيض الظبى والأرض طرف أشهب

والنــد قســطلة وزهر شموعنا   صم القنــابل والفحم نبل مذهب

ويقول أيضا مصورا المراحل التى تتم فى تكوين نار الكانون ، وكيف أن النيران تبدأ قوية ثم تهدأ ، وعندها يبدو الوقد كأنه ذهب يلمع ومن فوقه الأطراف المطفأة كأنها فضة ، يقول : ـ

انظر الى الكــانون فى بــدوه   وبعــد ما يخمــد منــه ذا اللهب

بينــا تراه ســبجا مذهبــا   حتى ترى الفضةمن فوق الذهب

---

(٢٩) ديوانه حـ ١ ص ١١٦

ـ وصف وسادة : ـ

من الملامح الحضارية التى كان الشعراء يهتمون بابراز جوانبها فى مجالسهم ما يكون فيها من مظاهر ترف ، وقد وصف الأسعد بن مماتى مخدة أعجبته فى بيت ابن سناء الملك وأعجبه ما فيها من رسوم وما نقش فيها بألوان خلابة وتمثل فيها ريح النسيم تسرى ، وجداول المياه تنساب ، ويرى أن تلك الريح العطرة ، من أنفاس النائم عليها وان مياه روضها من عرقة ، يقول : ـ (٣٠)

وسادة لمحت عينى بدارهم وسادة رقمت أمنا من الأرق

حكم السرور بها يقضى السكون لها كأنها عوذة من جنة الفلق

أحسن بها روضة ليس النسيم بها ولا المياه سوى الأنفاس والعرق

يحيا بناظرها انسان ناظرها ففى حديقتها من على الحدق

لو لم تكن سرقت من وجد مالكها محاسنا ظهرت لم تدع بالسرق .

ـ وصف الطعام : ـ

رأى الشاعر ابن رفاعة القطايف المقلوة ، فأثاره منظرها ، ووصف لونها وأنها تشفى من احساس الانسان بالجوع ، وتطفى عليه عليه أيضا دقة التصوير ويرى أنها فى لفائفها كأنها حرز مغلف ، وانه تعويذة من الذهب وغلافها من الفضة .. يقول : ـ (٣١)

أهلا بشهر غدا فيه تناخلف أكل القطايف عن شرب ابنة العنب

من كل ملفوفة بيض الى آخر حمر من القلى تشفى جنة السغب

كأنهن حروز ذات أغشية من فضة وتعاويذ من ذهب

---

(٣٠) الخريدة قسم شعراء مصر ج ١ ص ١٠٣ .

(٣١) الخريدة قسم شعراء مصر ح ١ ص ٦٢ .

٤ ـ استدعاء الصحب : —

من المظاهر الاجتماعية التى وصفها الشعراء فى مصر « استدعاء الصحب والرفاق » ، ونحن نحس أن المجتمع المصرى يحب الأرتباط والتآلف ويحرص على التقارب • ولقد استطاع الشعراء أن يعبروا عن هذا الجانب الاجتماعى خير تعبير ، فوصفوا أحاسيس التودد والتلهف الى اللقاء الذى يضم الرفاق فى جلسة صافية ، فنجد مثلا ابن سناء الملك يقول فى استدعاء صديق الى مجلس أنسى : ـ (٣٢)

حضـر الحبيب وأنت أشـ هى للفـؤاد من الحبيب

فلئن حضرت مسارعا فلأصفحن عن الذنوب

ولأمدحنك بالفتو ة فى الحضور وفى المغيب

وفى أبيات للبهاء زهير تراه يدعو صديقا له ليجمع شمل الرفاق فى مجلس صفو ومحبة ، ويغريه بكل ملامح الجمال فى هذا المجلس الذى يزهو فيه الورد الذى يفوح عبيره فيحيا برائحته الاحساس والناس ، كذلك تصدح فى هذا المجلس الموسيقى ويعلو صوت الغناء ، وهذه المتعة لا يحسها الشاعر بتمامها الا فى حضور صديقه الذى يدعوه بقوله : ـ (٣٣)

سيدى يومك هذا ليس يخفى عنك رسمه

قم بنا قد طلع الفجـ ر وقد أشرق نجمه

عندنا ورد جنى ينعش الميت شمه

وخوان يعبق المسـ ك برياه وطعمه

(٣٢) ديوانه ص٥٧٧ .

(٣٣) ديوان البهاء زهير ص ٢٩٥ .

وأخ يرضـــيك منـــه فضـــله الجـم وفهمـــه
كامـــل الظـــرف أديب شـــامخ الأنـــف أشـــمه
حســن العشـــرة لا يـــأ تيـك منـــه ما تذمـــه
ومغـــن زيـــره أطـــ رب مســـموع وبمـــه
وســـــرور لـيس شيء غير رؤيـــاك يتمـــه
فأجـــب دعـــوة داع أنث من دنيـــاه ســـهمه
فاذا غبت وجـاء الـــ (م) نـــاس طـــرا لا يهمـــه

ونلمس فى هذه الأشعار أن مثل هذه المجتمعات كانت تجمع بين اللهو والفكر ففى المجلس الذى وصفه البهاء زهير وصف أن من أفراده من يتمتع بصفات الأدب الى جانب من يقوم بالغناء والمرح ، ونجد ذلك أيضا فيما وصفه على بن ظافر ، يقول فى ليلة أنس « انها ارتفعت على أيام الأعياد كارتفاع الرءوس على الأجياد ، بل فضلت على ليالى الدهر كفضل البدر على النجوم الزهر » . واما نظمه فيها فيصور فيه أنها كانت ليلة مقمرة سطع فيها البدر فأضاء المكان بنوره الفضى ، وعبق النسيم .. وكان من الحضور صديق وفى ، حيث نعم الاثنان ومن معهم برفيق الأدب والفكر يقول (٣٤) :

ليلـــة ظل بدرهـــا يلبس الجـــد ران ثـــوبا مفضضـــا مرموقـــا
وغـــدا الكل فيـــه ينثـــر كافـــو را فيعلـــو مســـك التراب السحيقا
وتبـــدى النســـيم يعتنق الأغـــ صان لما ســـرى عنـــاقا رفيقـــا
بت فيه منـــادما لصـــديق ظل بين الأنـــام خـــلا صـــدوقا
فغـــدونا تحت الدجى نتعـــاطى من رفيق الآداب خمـــرا رحيقـــا

---

(٣٤) بدائع البدائه ص ٤٠٦ .

٥ ــ وصف المجــالس : ــ

تعددت مجــالس المتعــة التى حرص المصريون عليهــا وتنوعت مظاهرها وملامحها وقد يكون هذا المكان فى مدينة حباها الله بالجمال ، أو فى روضة غناء أو فوق شراع على صفحة النيل العظيم •• وهنــا لا يترك الشعراء هذا المكان أو هذا المجلس دون أن يعددوا محاســنه ومزاياه • ونرى دقة الوصف فى كل ما يعرضون له ، فهم يصــفون المكان ، ويصفون الأزمان التى يروق لهم الاجتماع فيها •• ويصفون ما يدور فى هذا المجلس ••

ولقد سبق الحديث عن جمال « الجزيرة » وما اتصــفت به من صور الابداع ونجد هنا الشاعر ابن الساعاتى يصــف مجلســا فيها حيث جعل منها مرتعا للأنس يجذب نحوه الحســان • ويصف ملامح الجمال التى تعددت فيه من هبوب النسيم على أشجارها أو فوق مياه غدراتها فترى الأغصان تهتز كأنها رمح مسنون ، وكأن مياه الغدران سيوف سلت من غمدها • كذلك يبرز جمال زهر الشقيق ذى اللون الأحمر وقد كساه الطل ، فبدا كأنه وجنة لامعة بدت فيها نبتة العذار • يقول (٣٥) :

ما أنسى لا أنسى الجزيزة ملعبــا   للأنس تألفه الحســـــان الخرد

يجرى النسيم بغصنها وغديرها   فيهــز رمح أو يســل مهنــد

ويزين دمع الطل كل شــــقيقة   كالخــد دب به عــذار أســـود

و « الجزيزة » يتضح فيها الجمال والفن فى كل أوقات الزمان ، ونجد الشاعر يصفها فى فصل الشتاء وقد نزل عليها هذا الأوان وظلت أوراق الأغصان فى أشجارها مخضرة لم يصبها الذبول أو ينــل منها الخريف فاتخذت منها الحمائم مرتعا تسجع فيه وتغرد ، ويصور هذه

---

(٣٥) ديوان ابن الساعاتى حـ٢ ص ١٥ .

الأغصان فى تمايلها وقد ازداد التقارب بين أصناف الزهور وكأن حديثا يدور بينها ، كما يعبق الجو براشحة الزهر ، التى تنتشر وتحسها الأنوف وما أجمل أن يكون اليوم يوم عيد فتزيد البهجة بهذا المكان فى الجزيرة. يقول ابن الساعاتى : ـ (٣٦) .

* * *

نزل الشتاء بها وهيف غصونها   خضر الملابس والحمائم تسجع

وبها لأفواه الأقاحى مع أزا   هرها حديث بالمناخر يسمع

والعيد قد وافى وليس لمثله   الا بمثل ربوعها مستمتع

والمجلس الذى ضم البهاء زهير ورفاقه اختاروا له أن يكون بين السواقى حين تدور وتجلب الماء ، فيستمتع الناس بصوتها وبهدير المياه. ويكتمل ذلك الجو بصوت الطيور فيقول : ـ (٣٧) .

علا حس النواعير   وأصرات الشحارير

وقد طاب لنا وقت   صفا من غير تكدير

فقم يا ألف مولاى   أدرها غير مأمور

نزلنا شاطىء النيل   على بسط الأزاهير

وقد أضحى له بالمو   ج وجه ذو أساريز

تسابقنا الى اللهو   ووافينا بتبكير

لقد مر لنا يوم   من الغر المشاهير

وكان المجلس الذى اجتمع بهابن الساعاتى فى هذه المرة مركبا

---

(٣٦) ديوان ابن الساعاتى حا ص١٢٣ .

(٣٧)ديوان البهاء زهير ص ١٣٧ .

يتنزه بها فى النيل ، فوصفه وصوره فرسا قويا ينطلق قاطعا بهم صفحة مياه النيل يطويها سريعا ، حيث يغتنم الرفاق فرصة الاجتماع والمتعة ، يقول [٣٨] :

ياصديقى الحميم والصادق الود (م) مشوق الى الصديق الحميم
قد ركبنا الى اقتناص الأمانى سابق السوط طامحا فى الشكيم
أدهم كالظلام نهدى الى القلـ ـب أياديه مثل كف الكليم
جامح الصدر حين يلجم بالر يح الى غـ ـبة المقام الكريم
فاغتنم صحة المسرة فاليو م لامكانها سقيم النسيم

— — أوقات المجالس : —

حرص الشعراء على دقة الوصف وتصوير حياتهم الاجتماعية فى صورة متكاملة ، فقد اهتموا أيضا بذكر الأوقات التى يحلو لهم فيها اللقاء ، وهى اما فى الصباح الباكر حيث يبدأ اليوم فى اشراقه ، وأما فى المساء حيث ينعم السمار بهدوء الليل . فمثلا نجد ابن النبيه يصفه مجلسا التقى فيه الرفاق فى جلسة ينتظرون فيها بزوغ ضوء الصباح بعد ليلة سهروا فيها ضمهم ليلها الذى يستمد نوره من نجوم مجرته وهم ينتظرون اشراقة صباحهم الجديد ليمتلأوا بشرا ، وكم كان جميلا أن يروا تأهب الطير الذى بدأ فى ترنمه على الأيك ، هذا هو الوقت الذى يراه الشاعر مناسبا لمجلس متعته يقول : — [٣٩] .

باكر صبوحك أهنى العيش باكره فقد ترنم فوق الأيك طائره
والليل تجرى الدرارى فى مجرته كالروض تطفو على نهر أزاهره

---

(٣٨) ديوان ابن الساعاتى حـ٢ ص ٦
(٣٩) ديوان ابن النبيه ص ٩١ وفوات الوفيات حـ٢ ص ١٤٣

وكوكب الصبح تجاب على يـده محلق تملأ الدنيـا بشـائره
فانهض الى ذوب ياقوت لها حبب ينوب عن ثغر من تهوى جواهـره

ويصف البهاء زهير مجلسا رق فيه النسيم ساعة بزوغ الفجر ، ويصف ما يكون فى هذا المجلس من غناء يقوم به مغن بارع فى صنعة الألحان والنغم ، يقول : — (٤٠) .

رق فى الجـو النسـيم فتفضـل يـا نـديم
مـا تـرى كيف أمحت من حلـة الليـل رقـوم
وكـأن الفجـر نهـر غـرقت فيـه النجـوم
فاسـبق الشـمس بشـمس لا تواريهـا النجـوم
يـا نديمى وكمـا تهـ ـوى حبيـب وحميـم
مطـرب فى صـنعة الـ الحـان والضـرب عليـم
ولعمـرى ان تفضـلت فقـد تـم النعيـم

وليس فى أول النهار فقط يجد الرفاق متعة اللقاء ، وانما يمكنهم ربط أنفسهم بالبهجة فىكل مكان وزمان ، فها هو البهاء زهير يصف ليلة نعم فيها بالمتعة والسهر الذى فضل النوم والراحة ، كما أن ظلام تلك الليلة كان أكثر اشراقا من ضوء النهار ، وكان من رفاقه من أمتعه بحلو الحديث ، يقول : — (٤١) .

وليلـة كأنهـا يـوم أغـر ظلامها أشـرق من ضوء الفجر
كأنها فى مقلـة الدهـر حـور ما قصـرت لو سلمت من القصر

---

(٤٠) ديوان البهاء زهير ص ٣٠٧ .

(٤١) المرجع السابق ص ١٥٤ .

تطابق العشاء منها والسحر ألذ من طيب الكرى فيها السهر
قطعتها فلا تسل عن الخبر بصاحب حلو الحديث والسمر
تحضر كل راحة اذا حضر فى الجد والهزل جميعا قد مهر

— وصف مجالس اللهو : —

ويتوالى وصف الشعراء لما يجدونه فى هذه المجالس فنجدهم يبرزون الصور التى تدور أمامهم ، فمنهم من يفضلون السهر واللهو والالتفاف فى حلقات الشراب ينهمون منه .. فابن سناء الملك يصف الشراب وما يبعثه فى الرفاق من سرور ، ولكن فى النهاية فان تلك السعادة تبرز فيها الحقيقة القاسية حين يبدو الصحاب وقد غاب عقلهم وأصبحوا جسوما لا تدرك أو تفهم ، يقول : — (٤٢) .

أين كئوسى وأين أكوابى فهى وحق المجون أولى بى
تلك التى لا تزال جامعة شمل حباب من شمل أحباب
تأتى ويأتى السرور يتبعها كأنه واقف على الباب
يديرها شادن يطول به عمر سرورى وعمر اطرابى
تسترق الراح من خصائله ترك جسوم بغير ألباب

ويصف ابن النبيه الساقى وقد بدا أبيض البشرة أسود الشعر فكأنما اجتمع فيه الضوء والظلمة ، كما اتصف بدقة القوام وجمال العينين اللتين استمدت منهما بانة الوادى وغزلانه ما يتصف به من جمال .. يقول : — (٤٣)

ساق تكون من صبح ومن غسق فأبيض خداه وأسودت غدائره
تعلمت بانة الوادى شمائله وزورت سحر عينيه جآذره

---

(٤٢) ديوان ابن سناءالملك ص ٥٦٦ .
(٤٣) ديوان ابن النبيه ص ١٨ .

وفى هذه المجالس كان هناك من يقوم بالغناء ، ونجد وصفا لهذا فى شعر جعفر بن محمد العلوى الأديب المصرى المتوفى سنة ٦٠٠ هـ حيث يصف مليحا يغنى وبيده طار (٤٤). وكم هو بديع أن نـــرى الصورة متحركة فى أبياته حيث يقول :

غـــنى بطـــار طـــار قلبى له ∗ بـــأنمل كالأنجـــم الخمـــس

كأنـــه والطـــار فـــى كفـــه ∗ بـــدر الدجى يلعب بالشـــمس

ولا يمتنع الشعراء فى مجالسهم اللاهية عن أن يعبروا عما يسوؤهم فيها ، مثلما حكى ابن الساعاتى حين حضر مصر أنه فى مجلس سماع عند بعض الرؤساء غنى مغن قبيح النغمة سىء الضرب ، فقال بعض الحـــاضرين : —

من منصفى ممـــن اذا ∗ ما ناح نحت بقبح نغمـــه

وفى الحديث عن المجالس اللاهية نذكر شعرا للبهاء زهير يرسم فيه صورة شاملة لمجلس من المجالس ، فيصف المـــكان الذى ضـــم الرفاق ، فهو جميل فيه الرياحين والأزهار ، واليوم ممطر وهـــذا أمر يحبه المجتمعون ، ويتضح أنه كانت تقام مآدب طعـــام فى رحـــلات الصحب وتنقلاتهم ، فنجده يصف طاهيا يقوم بإعداد الطعام ، كما يطيب للصحب أن يلازمهم مغن يشجيهم بصوته وألحانه وفى هذا كله اغراء لمن يريد الشاعر أن يدعوه الى هذا المجلس ، فقد اجتمع فى هذه الأبيات وصف المكان ووصف الندامى وصورة هذا اللقاء بكل ما فيهـــا .. يقول الشاعر (٤٥) :

---

(٤٤) فوات الوفيات حـ١ ص ١٩٦ .

(٤٥) ديوان البهاء زهير ص ١٦٠ .

يـومنا يـــوم مطـير ولنـا كـأس تـــدور
ومقـــام نحـس الأر ض بنـا فيـــه تمـور
ومـن الريحـــان والأز هـــار غض ونضـــير
ونــدامى بهـم العيـــ ش كمـا قيـل قصـير
وســقاة مثـل ما تهـــوى شــموس وبـــدور
ومغـن هـــو فيمـــا يحسـب النـاس أسير
مـاله فيمـــا يغنيـــ ه مـن الظـرف نظـير
واذا غنـى تمـوج الـــ أرض منـــه وتمـور
ويغيب القـــوم فى المج لس والقــوم حضـــور
ولنـــا طـــاه نظيـف وظـــريف وخبـــير
وقـــدور هـدرت فهــ ـى على الجمـر تفـور
مجلس ان زرتنـا فيــــ ه فقـد تم الســرور
كل مـا تطلبـه فيـــ ه مليـــح وكثـــير

ومن عجيب أن نجد أن مجالس اللهو والمتعـة لم تكن قاصرة على طبقة الأغنياء الذين يجدون متعتهم فى الأماكن الجميلة الفاخرة كما رأينا وانما كان للفقراء أيضا مجالسهم لاسعاد أنفسهم ووصـف مظاهـر هذه السعادة ، ونجد ذلك عند الشعراء الذين يصفون نبات الحشيشة حيث يتعاطاه الفقراء ويعقدون لها المجالس أيضا ، ويرون أن محبيها ينالهم الاحساس الذى يتساوى مع احساس شارب الخمر ، فيقول فى ذلك الشاعر زين الدين الحنفى : ـ (٤٦)

---

(٤٦) الخطط جـ ٢ ص ٢٥ .

وخضـراء كـافورية بات فعلهـا   بألبـابنا فعـل الرحيـق المعتق
اذا ما نفحتنا من شـذاها نفحـة   تـدب لنا فى كل عضـو ومنطق

وهذا النبات ينسب الى البسـتان الكـافورى فى مصر ، وهو البستان الذى كان لكافور الاخشيدى وكان كثيرا ما يتنزه به وبنيت القاهرة عنده ولم يزل الى سنة ٦٥١ هـ أى الى ما بعد العصر الأيوبى .

وقد كان الحكام فى مصر يقاومون ادمان النـاس لهذا النبـات وهدموا مزارعها . ومما يقال ان السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب أمر الأمير أبا الفاتح موسى بن لنجور أن يمنع من يزرع فى الكافورى من الحشيشة شيئا ، فدخل ذات يوم ورأى منه شيئا كثيرا فيه ، فأمر بـأن يجمع ويحرق وتم ذلك (٤٧) ومن طريف ما قيل فى وصـف ذلك الموقف ما قاله الأديب شرف الدين أبو العباس أحمد بن يوسف سنة ٦٤٣ هـ يصف ما أصاب ذلك البسـتان من دمار ، ويصف ما يراه من فوائد لهذا النبات : — (٤٨) .

لهفى وهل يجدى التلهف فى ذرى   طـرب الغـنى وأنس كل فقـير
أخت المـذلة لارتكـاب محرم   قطب السـرور بأيسـر الميسور
جمعت محاسـن ما اجتمعن لغيرها   من كل شىء كان فى المعمـور
منهـا طعـام والشراب كلاهمـا   والبقل والريحان وقت حضـور
أسـفا لدهـر غالهـا ولربمـا   ذل الـكريم بـذلة المأسـور

ويصف طريقة هدم البستان ويستبد بالشاعر حبه لهـذا النبات الـذى يتصـوره عروسا اجتمع الناس الذين جاءوا ليـروا حفـل

---

(٤٧) المرجع السابق حـ٢ ص ٢٦ .

(٤٨) المرجع السابق نفس الجزء والصفحة

عرسها ، وفي كل بيت ترى صورة جديدة ، فهي مرة جنة زوجت بالنور ومرة اكتست بكساء أصفر هو لهب النار التي حرقت به ويرى هذا البستان جميلا في كل وقت .. ثم يدعو لها بالسقيا ويبدى أسفه لفقدها .. يقول : ــ [٤٩]

جمعت لها الأشهاد كرما أخضرا كعروسة تجلى بخضر حرير

زفوا لها نارا فخلنا جنة برزت لنا قد زوجت بالنور

ثم اكتست منها غلالة صفرة في خضرة مقرونة بزفير

فكأنها لهب اللظى في خضرة منها وطرف رمادها المنثور

لله درك حية أو ميتة من منظر بهج بغير نظير

أوذيت غير ذميمة فسقى الحيا تربا تضمن منك ذوب عبير

عندى لذكرك ما بقيت مخلدا سح الدموع ونفثه المصدور

٦ ــ ولقد وجدت هذه الحياة اللاهية ردود فعل تصور تمسك الناس بالقيم الدينية الحقة وترفض مثل هذه الحالات التي صورها الشعراء .. ومن ذلك ما ذكره ابن دقيق العيد في تنبيه اللاهين الى عاقبة لهوهم فيقول : ــ [٥٠] .

الا ان بنت الكرم أغلى مهرها فياخسر من أضحى لذلك باذلا

تزوج بالعقل المكرم عاجلا وبالنار والغسلين والمهل آجلا

كما أتجه الشعراء الى ابراز معاني الاتجاه الى حسن الخلق

---

(٤٩) نفس المرجع والصفحة .

(٥٠) ابن دقيق العيد حياته وديوانه على صافى حسين ص ١٨١ .

(٥١) المرجع السابق ص ١٨٥ .

والتوكل على الله وليس التواكل .. فنجد ابن دقيق العيد يقول : (٥١)

وقائلة مات الكرام فمن لنا   اذا عضنا الدهر الشديد بنابه

فقلت لها من كان غاية قصده   سؤالا لمخلوق فليس بنابه

لئن مات من يرجى فمعطيهم الذى   يرجونه باق فلوذى ببابه

ويقول أيضا البهاء زهير فى بيان أنه لم يقل أشعاره ابتغاء التكسب وأن التوكل على الله لابد أن يكون شعاراً يلتزم به الانسان .. يقول(٥٢) :

وما قلت أشعارى لأبغى بها الندى   ولكننى فى حلبة الفضل واثق

أأطلب رزق الله من عند غيره   واسترزق الأقوام والله رازق ؟

٧ — عرف المصريون بحبهم للفكاهة والتندر ، وقد كانت مجالسهم تجمع بين الطرافة والمداعبة والمؤانسة ، ولم يكن الشاعر لير منظرا دون أن يصفه اذا لمس فيه روح المرح .. ومن ذلك شعر ابن سناء الملك فى وصف طريف ضاحك حين رأى غلاما جميل الصورة حضر حومة التلاق فأصابه حجر فانكسرت أسنانه .. فقال فى ذلك(٥٣) :

نثر الدهر عقد ثغر حبيبى   فدموعى عليه تحكى انتثاره

كل سن كالأقحوانة كانت   فبدت بالدماء كالجلنارة

كان فى حومة التلاق وما كا   ن بعيدا فى جملة النظارة

فأتته الأحجار شرقا وزارته   فلا مرحبا بتلك الزيارة .

---

(٥٢) ديوانه ص ٢٣١ .

(٥٣) ديوانه ص ٤٠٣ ، ووفيات الأعيان ج ٦ ص ٦٣ .

ومرة أخرى يصف لحية طويلة ويسخر من صاحبها فيقول : — [٥٤]

عرضت لحية ابن عمر كما طا لت فخلقا لها وسحقا وبعدا
انما أصبحت كمروحة الخيـ ـش حكتها لونا وشكلا وبردا

ولا ينسى ابن سناء الملك فى أوصافه الفكهة ارتباط معانيه بما عرف عنه من وصف للرياض والمنازل ، فهو يضفى عليها من أوصاف الطبيعة الكثير ، كما رأينا فى وصف اللحية فى الأبيات السابقة ، وكما يقول أيضا فى وصف أنف ساخرا من صاحبه[٥٥] :

لـك وجه وفيه قطعة أنف مثل خيط قد أدعموه بنبلة
وهو فى القبر كالمنازل لكن جعلوا نصبه على غير قبلة

ويصف البهاء زهير لحية رجل كبيرة كست وجه صاحبها حتى أن من يريد أن يتعرف على ملامح هذا الوجه لا يستطيع .. يقول[٥٦] :

وأحمق ذى لحية كبيرة منتشرة
طلبت فيها وجهه بشدة فلم أره
معرفة لكنه أصبح فيها نكرة
ثور غدا أعجوبة بلحية ممدودة
قد نبتت فى وجهه فوق عظام نخرة
اذا خطت أقدامه كانت بها معثرة
واذا مشى رأيت فو ق الأرض منها غبرة

(٥٤) ديوانه ص ٤٧٥ .
(٥٥) المرجع السابق ص ٤٨٢ .
(٥٦) ديوان البهاء زهير ص ١٦٢ .

وأما حين يصف بغلة صاحبه فانه يصفها بثقلها وما تثيره فى الطريق أثناء سيرها المعوج ، وأنها تشعر من حولها بأن الأرض أصابتها زلزلة قوية منها . يقول (٥٧) :

لك يا صديقى بغلة ليست تساوى خردلة
تمشى فتحسبها العيو ن على الطريق مشكلة
وتخال مدبرة اذا ما أقبلت مستعجلة
مقدار خطوتها الطويـ لة حين تسرع أنملة
تهتز وهى مكانها فكأنما هى زلزلة

ويسخر ابن الذروى من رجل به حدبة جعلته محنى الظهر ، لكنه يصفها ويبين فيها ما يسىء صاحبها .. وهو يجعل انحناءه من الحدبة كأنه راكع على الدوام .. وتزداد السخرية حين يتصور الشاعر أن النساء قد أعجبهن هذا المنظر وتتمنى كل منهن أن ترى الرجال كلهم وقد أصابهم ما أصاب صاحب هذه الحدبة . يقول : — (٥٨)

لا نظنن حدبة الظهر عيبا فهى للحسن من صفات الهلال
وكذاك القسى محدوبات وهى أنكى من الظبا والعوالى
قد تخليت بانحناء فأنت الـ راكع المستمر فى كل حال(٥٩)
وتعجلت حمل وزرك فى الظهـ ر فأمنا فى مواقف الأهوال

---

(٥٧) المرجع السابق ص ٢٩٤ .

(٥٨) خريدة القصر قسم مصر جـ١ ص ١٨٨ .

(٥٩) هذا البيت وتاليه وردا فى هامش الكتاب عن الروضتين .

كون الله حدبة فيك أن تشئ تمن الفضل أو من الافضال

فأنت ربوة على طود حلم منك أو موجة ببحر نوال

ما رأتها النساء الا تمنت لو غدت حلية لكل الرجال

تلك ملامح لمظاهر الحياة الاجتماعية والحضارية المتعددة فى مصر والتى لم يغفلها الشعراء بما جبلوا عليه من دقة الوصف والتصوير ، فبقيت الى زماننا هذا تذكرنا بما كان فى وقت مضى .

الفصل الرابع

وصف الطبيعة

لقــد حبا الله سبحانه وتعالى مصر بطبيعة خلابة أبدع حســنها وجمالها ، ولقد تغنى الشــعراء بهذا الجمــال وأفاضــوا القول في تعبيرهم عنه ، ووضح في تعبيرهم أن هذا الاعجاب نابغ من أنهم أحبوا مصر وتغنوا بكل ما فيها من بهاء وجمال ، انها مصر تلك التى يصفها البهاء زهير بقوله[1] :

ولم أر مصــرا مثــل مصــر تروقنى
ولا مثل ما فيها من العيش والخفض

وبعــد بــلادى فالبــلاد جميعهــا
ســواء فلا أختار بعضــا على بعض

فهو يرى كل أسباب العيش الهنىء والخير الوفير فى مصر بلده الحبيب الى نفسه ، والذى بعده تتساوى كل البلاد فلا يجــد ميزة لبلد آخر ، فكلها فى منزلة تالية لمنزلة بلاده .

وحديثنــا عن مصر وحبها ، وتغنى الشعراء بجمالها يأخذنا الى أحاسيس من ارتبطت قلوبهم بها سواء من كانوا من أبنائها ، أو ممن وفد اليها وعاش فى رحابها ، وظلت ذكراها تملك على نفسه ، نرى مثلا الشاعر ابن عنين قد ارتبط بمصر حين عاش فيهــا فترة طويلة ، وحين تركها وعاد الى موطنه دمشق فى بلاد الشام صور مشاعره وكيف أن شوقه اليها لا يهدأ أو يستكين ، فان مجرد نسمة هواء تأتى اليه من ناحيتها كفيلة بأن تذكى فى صــدره نيران الشوق واللهفــة اليهــا ،

---

(1) ديوان البهاء زهير ص ١٨٨

ويصور مدى لهفته الى مصر وأن يستظل برغد العيش فيها ، ولو أنه يملك جناحا لطار من شوقه اليها ، فهو يقول (٢) :

تحيـة مشـتاق بعيـد مزاره أبى شـوقه أن يسـتقر قراره
اذا نفحـة مـرت به قـاهرية ذكت فى الحشا بين الجوانح ناره
وما شـام من أعـلا المقطم جفنه سـنا بارق الا توالت قطـاره
أحـن الى مصر ويـا ليت أن لى اذا ذكرت مصر جنـاحا أعـاره
فآوى الى ظل ظليل ونائـل جزيل وملك حـالف العـز جـاره

كذلك تلوح ذكريات مصـر للعماد الأصبهانى وتتتـابه لحظـات الحنين الذى زاره ونعم بالحياة فيه ، لكنه يتركه ويعود الى الشام ، فلا تتركه الذكريات ويجد نفسه يخاطب أهل مصر ويدعو لهم بالعيش الهنىء الذى أحس هو بفقده حين تركهم ، ولقد اشتاق الى سماع أخبـار مصر ، ويتلمسها فى كتب يجدها بين يديه ويتمنى أن تدرك مصر أن المسافات وان بعدت فان الشوق والحب باق لا ينتهى يقول (٣) :

سـاكنى مصـر هناكم طيبهـا ان عيشـى بعـدكم لـم يطـب
لا عـدمتم راحـة من قربهـا فـأنا مـن بعـدكم فى تعب
يعـيد العهـد بأخبـاركم فابعثـوا أخبـاركم بالكتب
ليت مصـرا عـرفت أنى وان غبت عنهـا فالهـوى لم يغب

ويقـول أيضـا : ـــ

لله عيش تقضى عنـدكم ومضى وكان مثـل سـحاب برقه ومضا

(٢) ديوان ابن عتين ص ٩١ .
(٣) الروضتين ص٧٠٧ .

العيش دان جناه الغض عنــدكم   والقلب محترق منى بجمر غضــا

طوبى لكم مصر والدار التى قضيت   فيها المآرب والعيش الذى خفضا

وأما ابن سناء الملك الشاعر المصرى ، فهو يحب مصر حبا سيطر عليه وملك عليه نفسه ، فقد عاش فيها ، وحين تركها أعلن حنينه اليها وأنه لا يعدلها مكان آخر ، وأن الشام على ما عرف عنها من جمــال اشتهرت به غوطتها لا تكفى كلها ثمنا لشــبرين فى موقع محــدد من مصــر .. يقول : ـــ (٤) .

لقــد ضــرنى البين المشـــت وحزنى
فيالك بينــا ما أضر وما أضرى

أأهبط من مصر وقدما قد اشتهى
على الله أقوام فقال اهبطوا مصرا (٥)

فوالله مــا أشــرى الشــآم وملكه
وغوطته الخضرا بشبرين من شبرا

وأما ابن النبيه فانه يصف مصر موطنه ومهد صباه وشبابه ويعبر عن حنينه الى أهل مصر الذين هم النور الذى يهتدى به وبدونهم لا يجد الهــدى ، أنه يمنى نفسه بلقــاء أهلها أصــحاب الصــفاء والنضرة والحيــاة ، يقول :

أنا والأغصــان من شوق معــا   نحوكم أعناقنــا قــد لــويت

---

(٤) ديوان ابن سناء الملك ص ٥٨١ .

(٥) اشارة الى ما ورد فى الآية ٦٠ من ســورة البقرة : (واذا قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وبصلها قال أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير اهبطوا مصر فان لكم ما سألتم) .

أنتـم الأنجـم مذ غيبتمـوا بسوى أنـواركم ما هـديت

ساكنى الفسطاط لو أبصرتكم جليت مرآة عينى ما صدئت

ان أعاد الله شـملى بكم سـعدت آمال نفسى ما شـقيت

ان أرضـا أنتـم سـكانها غنيـت من أن تقولوا سـقيت

ان تلك المشاعر التى تشد الى التعبير عن حب مصر وأهلها ، لابد أن يتردد صداها فى نفس الشعراء الذين يشيدون بملامح الجمال فيها ، ويبرز كل منهم جانبا أو جوانب منها ..

ان ديار مصر كلها جميلة تهفو اليها النفوس وتعشقها القلوب ، وما بين مكان وآخر نلمس الجمال وابداع الخالق عز وجل ، أن أماكن الجمال متعددة ، فيها ، ومن مدنها الجميلة مدينة « أسيوط » التى يقول فيها ابن جبير (انها مدينة جميلة المنظر حولها بساتين النخل ، ومن مدن الصعيد فى الطريق الى « قوص » موضع يعرف بالبلينة وهى قرية حسنة كثيرة النخل بالشط الغربى من النيل، وكذلك مدينة « دندرة » كثيرة النخل مستحسنة المنظر مشتهرة بطيب الرطب)(٦) .

ونحس جمال مدينة الاسكندرية حين نرى قول أبى المظفر عند زيارته لها فى سنة ٦٤١ هـ قال : — (٧)

(قدمت القاهرة وسافرت الى الاسكندرية فوجدتها كما قال الله تعالى : (ذات قرار ومعين) . فهو يراها جنة تملأ عليه نفسه وتشعره بما ينعم بها أهل الجنة . كما كانت « الفسطاط » مدينة حسنة ينقسم النيل لديها ، وهى مدينة مستطيلة يمر النيل مع طولها ولها متنزهات

---

(٦) رحلة ابن جبير ص ٤٠ .

(٧) النجوم الزاهرة حـ٦ ص ٣٢٦ .

وان كان الاهتمام بها قد ضعف بعد بنـاء مدينة القـاهرة وفرط فى الاغتباط بها بعد الافراط . [٨] .

ومن الطبيعى أننا حين نتكلم عن وصف الطبيعة فى مصر نعلم أن أول ما يمكن أن نتكلم عنه « النيل » ويتحدث ابن جبير عن أثر النيل فى معانى الجمال لمصر فيقول : — [٩]

« ومن عجب أن بناء هذا البلد تحت الأرض كبنـائه فوقهـا ، وأعتق وأمتن لأن الماء من النيل يخترق جميع ديارها وأزقتهـا تحت الأرض فتصل الآبار بعضها ببعض ويمد بعضها بعضا . »

وقد عد المصريون « النيل » منذ القدم منبع الخير وتغـنى به الأدباء فى كل زمن وحـكى عنه الكتـاب والمؤرخون ، وقد عرف أن النيل له أيام زيادة وأيام نقصان ، وقد قال بعض الحكمـاء : (لولا ما جعل الله فى نيل مصر من حكمة الزيـادة فى زمن الصـيف على التدريج حتى يتكامل رى البلاد وهبوط المـاء عنها عند كل بدء الزراعة لفسد اقليم مصر وتعذر سكناه ، لأنه ليس فيه أمطار كافية ولا عيون جارية تعم أرضه الا بعض اقليم الفيوم)[١٠] .

فالنيل له التأثير الكبير على أهل مصر وما ينالهم من خير ، حين يفيض ، فاذا فاضت مياهه فاض خيره ، ويرى ابن خلكان أن (أحسن ما يوصف به نقصان النيل) قول ابن سناء الملك « وأما أمر الماء فانه نضبت مشارعه وتقطعت أصابعه وتيمم العمود لصـلاة الاستسقاء ، وهم المقياس من الضعف بالاستلقاء » [١١]

---

(٨) الخطط حـ١ ص ٣٤١ .

(٩) رحلة ابن جبير ص ١٤ .

(١٠) الخطط حـ١ ص ٦٣ .

(١١) وفيات الأعيان حـ٦ ص ٦٤ .

وتناول الشعراء هـذا المعنى فى وصـف النيل ، وأثارت ظاهرة زيادته ونقصانه أنتباه الشعراء ، فعبروا عنها ، فنجد من يرسم لوحة للنيل وكيف أنه يزيد وينقص حسب أيام الفيضان ، وهو ان زاد يلتقى مع الأرض ويفيض عليها ، ثم اذا ما انتهى وقت تلك الأيام عاد الـى التناقص ويصـور الشـاعر ذلك بأنه ملل يصيب النيـل فيتراجـع ثانيـة يقول : ـ (١٢)

وهـا لهذا النيـل أى عجيبه   بكر بمثـل حديثهـا لا يسـمع

يلقى الثرى فى العام وهو مسلم   حتى اذا ما مل عـاد يودع

متنقـل مثـل الهـلال فـدهره   أبدا يزيد كمـا يريـد ويرجـع

ويصور شاعر آخر ما يكون عليه حال النيل من زيادة ونقصان ، وكأن ذلك حسن تدبر منه ، فهو يعلم حال الناس ، فاذا أحس حاجتهم وعوزهم أتى اليهم بالخير والنماء ، ثم يتراجع اذا نالوا منه حاجتهم وأصبحوا فى غناء عنه ، يقول : ـ (١٣)

كـأن النيـل ذو فهـم ولـب   لمـا يبدو لعين النـاس منـه

فيـأتى حين حاجتهـم اليـه   ويمضى حين يسـتغنون عنـه

ولنر الآن كيف أحس شعراء العصر الأيوبى جمال نيل مصر وبماذا عبروا عن هذا الاحساس ، فابن الساعاتى خرج فى نزهة استقل فيها زورقا سار به على صفحة النيل ، ورسم صورة لهذا الموقف ، فقد جعل مياه النيل عينا تضـم هذا الزورق ، وجعل المجـاديف أجفـانا تطبق عليهـا ، يقول : ـ (١٤)

---

(١٢) ديوان ابن الساعاتى جـ ١ والخطط جـ ١ ص ٦٣ .
(١٣) الخطط جـ١ ص ٦٣ .
(١٤) ديوان ابن الساعاتى جـ٢ ص ٢١٤ .

ولما توسطنا مدى النيل غدوة ظننت وقلب اليوم باللهو جذلان

عشاريه انسانا له الماء مقلة وليس لها الا المجاديف أجفان

ويرسم لوحة للنيل وقد أحاط به الورد والزهر ، وبدت مياهه كأنها دروع صنعتها الريح حتى تقيه وتحميه من قطرات مياه المطر التى تبدو كأنها نبل يتساقط عليه . وتبدو أيضا أضواء القمر فوق صفحة النيل كأنها فضة سالت عليه يقول : —[١٥]

لله آية ليلة قضيتها بوصال من يعد الوصال فيصدق

فى ظل ضافى الدوح ضاف ورده يلغى سدير عنده وخورنق[١٦]

لبست متون النيل فيه سوابغا من خوف نبل القطر وهى تفوق

وكأن بدر التم ملك أبلج ومن السماء له رداء أزرق

وكأنما زهر النجوم رعية فقلوبها منه تخاف فتخفق

تسرى فيجلوها الغدير بصفوة مثل السيوف أو الشنوف تعلق

والنور فوق الماء ذائب فضة من فوق مائع عسجد يتألق

متحرك فى مائج كصفائح الـ ميناء ألقى فوقهن الزئبق

وأما البهاء زهير فهو يعبر عن طبيعة المصريين الذين يحلو لهم أن يتخذوا من ضفاف النيل مجلسا لهم ينعمون فيه بأوقات المرح والسرور

---

(١٥) المرجع السابق حا ص ١٦٨ .

(١٦) سدير : بناء ، وهو بالفارسية سهدلى ، وأعربته العرب فقالوا سدير . ويقال : قصر ، وهو معرب وأصله بالفارسية سه دله أى قباب متداخلة (لسان العرب) . الخورنق : — قصر للنعمان الأكبر معرب خور نكاه أى موضع الأكل . (القاموس المحيط) .

والبهجة ، انه يصف شاطىء النيل وقد أحاطت به الحدائق تنتشر فيها الأزهار اليانعة ، وقد جعل الشاعر « النيل » يشاركه ورفاقه مظاهر السعادة والسرور ، فبدت صفحته تنطلق فيها علامات البهجة والاشراق .. يقول : ـ (١٧)

نزلنا شاطىء النيل	على بسط الأزاهير
وقد أضحى لنا بالمو	ج وجها ذا أسارير
تسابقنا الى اللهو	ووافينا بتبكير

وهو لا يرى في غير السكنى على النيل ما يعترف به سكنا جميلا، حتى أنه ينفي أن يكون لمثل هذا المنزل وهذه الدار ما يماثله على ظهر البسيطة ، يقول : ـ (١٨)

حبذا دور على النيـ	ـل وكاسات تدور
ومسرات تموج الـ	أرض منها وتمور
وقصور ما لعيش	نلته فيها قصور
كل عيش غير ذاك الـ	عيش في العالم زور
منزل ليس على الأر	ض له عندي نظير

وحديث الشعراء عن النيل تصوير حقيقي للجمال الذي يصنعه هذا النهر العظيم ، فقد كانت فترة فيضانه من أهم الفترات التي تنعم فيها مصر بالخير والجمال ، وقد وصف ذلك أبو الصلت بقوله : (١٩)

---

(١٧) ديوان البهاء زهير ص ١٣٧ .

(١٨) المرجع السابق ص ١٤٣ .

(١٩) الرسالة المصرية ص ٢٠ .

« فى هذا الوقت من السنة تكون أرض مصر أحسن شىء منظرا ، ولا سيما متنزهاتها المشهورة ، ودياراتها المطروقة كالجزيرة والجيزة وبركة الحبش وما جرى مجراها من المواضع التى يطرقها أهل الخلاعة والقصف ويتناوبها ذوو الآداب والظرف » .

ويتكلم القاضى الفاضل عن النيل ، فيعبر عن أن مياه غيره من الأنهار لا تروى ظمأه أو تشفى غليله ، ويعبر عن أنه حين بعد عن مصر لم يرتو من ماء الفرات ، وأنه وان لم يبد للناس بكاء عينيه على فراق النيل ، فان قلبه ملىء بحبه ، يقول[٢٠] :

بالله قل للنيل عنى اننى لم أشف من ماء الفرات غليلا
وسل الفؤاد فانه لى شاهد ان كان جفنى بالبكاء بخيلا .

كذلك يقول الأمير تاج الملوك يورى :

شربت من الفرات ، ونيل مصر أحب الى من ماء الفرات

وعين الشعراء لا تترك شيئا دون أن تبرزه وتنقله الى الغير ، فابن الساعاتى ركب النيل مرة ، ولكن هبت الريح فكسرت عدة قوارب فكتب الى صديق له نزل بالجزيرة ، وصور له ما حدث كأنه معركة دارت على صفحة النيل ، وكأن تتابع الموج خيل تجرى بين جنود الجيش ، وصور قلوع المراكب رايات يحملها الجنود .. ويبين أن ما رآه كان — فى عينه — صورة معركة حقيقية .. يقول[٢١] :

لو تبصر الخلجان حيث الريح مطلقة الجوانب
وترى العشاريات فى تلك الجداول والقوارب
والموج بينهما كسب الخيل ما بين الكتائب

(٢٠) وفيات الأعيان حـ٣ ص ١٦٠
(٢١) ديوانه حـ٢ ص ٦ .

وقلوعهـــا راياتهـــا في الجـــو خافقـــة الذوائب
لرأيت حربـــا أججت بين الأراقـــم والعقـــارب

وأثارت الخلجان أيضا اهتمام الشعراء ، والمعروف أن النيل اذا انتهت زيادته فتحت منه خلجان وترع يتخرق منها الماء يمينا وشمالا الى البلاد البعيدة عن مجرى النيل ، وأكثر الخلجان والترع والجسور بالوجه البحرى ، وأما بلاد الصعيد فان ذلك قليل فيه ، ومشهور من من الخلجان ، خليج منجا وخليج منف وخليج أشموم طنـاح وخليج الاسـكندرية وخليج دميـاط وخليج القـاهرة وبحـر أبى المنجـا والخليج الناصر ظاهر القاهرة : ـ [٢٢].

ووصف الأسعد بن مماتى ما شاهده من خلجان وترع فى طريقه الى ثغر دمياط والاسكندرية ، فقال : ـ [٢٣]

لو أطلق الدمع مشـتاق ومـدكر لمن يحب لأشفينا على الغرق
لكنمـا هـذه االخلجـان متـأقة لأنها رشح ما يعصى من الحـدق

ومرة ثانية يصف الأسعد بن مماتى الخليج يوم فتحه بالقاهرة ، ويتخيله حساما مصقولا ، ويتضـح من شـعره أنه فى هذا اليوم مى مناسـبة كسر الخليج يلهو الصغار فى مياهـه ، وهو يعبر عن ذلك بقـوله[٢٤] :

خليج كالحسـام له صـقال ولـكن فيـه للرائى مسـرة
رأيت به الملاح تجيـد عومـا كأنهم نجـوم فى المسـرة .

وأما ابن سناء الملك فهو يرى البحر ميدانا تجول فيه السفن وتتتابع

(٢٣) الخطط حـ١ ص ٧٠ .
(٢٣) خريدة القصر قسم شعراء مصر حـ١ ص ١٠٣ .
(٢٤) المرجع السابق ص ١٠١ .

ويتصورها خيولا يطارد بعضها بعضا ، غير أنه لا يصيبها ما يصيب الخيل من تعب أو نصب ، كما لا يسيل منها العرق الذى يغمر جسم الخيول يقول : — [٢٥]

كأن البحر ميدان وفيه من السفن التى تجرى خيول
يطارد بعضها بعضا وليست تكل ولا لها عرق يسيل

— وصف الرياض : —

حوت مصر من ملامح الجمال الكثير ، ومن ذلك ما كان فيها من كثرة البساتين والرياض وانتشار الزهر ، (وقد ورث بنو أيوب هذا الجمال الذى نعمت به مصر ممن سبقهم من الحكام ، فهم حين استولوا على ملك مصر بعد الفاطميين أجروا الحال على ما كان ، وقد كان للخلفاء الفاطميين عدة بساتين يتنزهون فيها ، منها البساتين الجيوشية وهما بستانان كبيران كان لهما شأن عظيم . ومن شدة غرام الملك الأفضل ببستان كان له عمل له سورا كسور القاهرة ، وعمل فيه بحرا كبيرا وقبة عشارى ، وبنى فى وسط البحر منظرة محمولة الى أربع عواميد من أحسن الرخام وحفها بشجر النارنج وسلط على هذا البحر أربع سواقى وجلب اليه من الطيور المسموعة شيئا كثيرا ، واستخدم للحمام عدة مطيرين وسرح فيها كثيرا من الطاووس .) [٢٦] .

لقد ظل هذا الجمال الذى تميزت به مصر فى العهد السابق على العهد الأيوبى مستمرا فى العصر الجديد وحافظ عليه أصحابه ، وعاش المصريون ينعمون بجمال الروض وما يحويه من زهر تفوح منه أنواع الطيب وجميل الرائحة ويكتمل هذا الجمال اذا ما تساقط عليه قطرات

---

(٢٥) ديوان ابن سناء الملك ص ٥٧٢ .
(٢٦) الخطط جـ ١ ص ٤٨٨ .

الندى الذى يصوره البهاء زهير كأنه ذهب ذائب على أوراق الشجر .. يقول فى وصف بستان له : (٢٧)

لله بســـــتانى ومــــا   قضيت فيــه من المــآرب

لهـــفى على زمــن بـــه   والعيش مخضــــر الجوانب

فيروقــنى والجـــو منـــه   ســـاكن والقطـــر ســـاكب

ولــكم بكــرت لــه وقــد   بــكرت له غــر المســـحائب

والطــــل فى أغصــــانه   يحــكى عقــودا فى تــرائب

وتفتحــت أزهــــاره   فتـــأرجت من كـــل جـــانب

وبـــــدا على درجــــاته   ثمــر كأذنــاب الثعــالب

وكأنمـــا فى آصــــاله   ذهب عــلى الأوراق ذائب

وحين ينظر ابن النبيه الى الروض يراه متنوع الأشكال فى جماله ورونقه ، فهو يرى فيه الأزهار فى باقات جميلة ، ويبدى اعجـــابه بتمايل الأغصان طربا بغناء الحمـــام ويعجب حين نظر الى أصـــناف الزهور ويراها نجوما تناثرت على صفحة الأرض وكأنها سماء ثانية ، ويرى أن الأرض قد فاقت السماء بنجومها الزاهرة المتنوعة فى الألوان والأضـــواء ، فهى ما بين نرجس وشقيق وزهر الاقحوان الذى تخلله الندى وقطرات الطل .. يقول : ــ (٢٨)

الروض بين متــوج ومشـــــتت   والزهــر بين مدبج ومفــوف

والغصن غنــاه الحمـــام فهــزه   طربا وحيـــاه الغمـــام بقــرقف

---

(٢٧) ديوان البهاء زهير ص ٢٤ .
(٢٨) ديوانه ص ١٢٣

والظل يسبح فى الغدير كأنه صدأ يلوح على حسام مرهف
قس بالسماء الأرض تعلم أنها بكواكب الأزهار أحسن زخرف
أحداق نرجسها لخد شقيقها مبهوتة بجماله لم تطرف
والطل فى زهر الأقاح كأنه ظلم ترقرق فى ثنايا شرشف .

والروض له فى نفس ابن الساعاتى تأثير كبير ، وهو يصفه فى صورة متكاملة تضم كل ألوان الجمال ، انه يصف الغدير وقد جعلت منه هبات النسيم نقوشا تتراءى للانسان كأنه دروع ، ويصف غصون الشجر وهى تتمايل على تغريد الطيور التى تبعث فى هذه الأشجار مرح الصبا وحيوية الشباب ، ثم تنتقل أحاسيس الشاعر ما بين رؤيته لزهر الأقاحى الباسم ، وللأرض المكسوة بالخضرة ، ويغلف ذلك كله جو داكن من فعل غيوم السماء .. يقول (٢٩) : —

ولرب يوم غاب فيه رقيبنا ومزاجنا ماء الغمام المدجن
حيث الغدير وقد أجادت نقشه كف النسيم ومرها فى الجوشن
وغصون دوح النيرين يهزها نغم القمارى بالغناء المحسن
من كل لون كالقوام يميل من مرح الشباب الى الدلال فينثنى
ما بين ثغر كالأقاح مفلج وجبين نهر بالنسيم مغضن
ووجوه هاتيك الرياض سوافر غيد تنزان من المياه بأعين
والأرض تجلى فى رداء أخضر والجو يبرز فى قناع أدكن

(٢٩) ديوان ابن الساعاتى ج ١ ص ١٥٢ وهى من قصيدة مدح بها الملك الظاهر ابن صلاح الدين بدأها بقوله ..

اشرب على وردالخدود وغننى
وسقيت كأس البين ان لم تسقنى

ويصف أيدمر المحيوى الروض ، فيوضح نضارته وجماله حيث بدت حبات الندى على أوراق الزهر كأنهـا لؤلؤ يزين تلك الأزهـار بتاج ، وحين أشرقت الشمس تلاقى شعاعها مع حبات الندى فتعددت خيوط الشعاع وتكاثرت فكأنما صـار ذلك شـموسا متعـددة نشرت الضوء القوى فى جنبات الروض ، وتمايلت الغصـون وغنى بصـوت معبر عما فى نفسه فيتجاوب معه سامعه وكأنه يفهم ما يغنيه ، ذلك هو وقت الربيع عند الشاعر بكل معانى الجمال الناطقة فيه ، فهو يدعو الى التملى بها واسعاد النفس منها • يقول : ـــ (٣٠)

الروض مقتبـل الشـبيبة مونق خضل يكاد غضـارة يتـدفق

نثر النـدى فيـه لآلىء عقده فالزهر منـه متوج وممنطـق

وارتاع من مر النسيم به ضحى فغدت كمـائم نـوره تتفتـق

وسرى شعاع الشمس فيه فالتقى منها ومنه سـنا شـموس تشرق

والغصن ميـاس القوام كأنه نشوان يصـبح بالنعيـم ويغبق

والطير ينطق معربا عن شجوه فيكاد يفهم عنه ذاك المنطـق

غردا يغنـى الغصـون فتنثنى طربا جيوب الظل منـه تشـقق

ولقد سـبق الحديث أن مصر تميزت بكثير من مظاهر الجمـال نعمت به مدن كثيرة فيها • وكان أبرز هذه المظاهر الجمالية ما كان من من أثر لكثرة الرياض بهذه المدن •• ولقد كان الشاعر ابن الساعاتى مغرما بوصف الأماكن التى تتبدى فيهـاعظمة الخـالق فى مـلامح الطبيعة • وهو هنا يصف مكانا بالجزيرة على النيل العظيم ، ويجتمع

---

(٣٠) فوات الوفيات والذيل عليها جـ ١ ص ٢٠٨ تحقيق د / احسان عبـاس / بيروت •

جمال الزهر مع روعة النيل فى لوحة جميلة من صنع الله سبحانه وتعالى ، فالزهور تنتشر فى الجزيرة ويفوح منها ريح المسك ، ولقد كان ذلك فى وقت فيضان النيل ، فيصف ذلك المد ، وأن مياه النيل كأنها الذهب الذى يذوب وينتشر به الخير بين أهل البلاد ، فينالون الغنى والرخاء ، وان النيل هو العوض بمائه الوفير لو أن السماء ضنت بالسحاب والمطر ، وتكتمل صورة الروض الجميلة بمايكون عليه منظر النيل حين تتحرك عليه المياه ، فكأنه دروع تتحرك ، وفى حالة سكونه فهو سيوف لامعة لا يخشى بأسها يقول : — (٣١) .

ولقــد نزلت من الجـزيرة منزلا   شــمل السرور بمثلــه متجمــع

خضل الثرى نديت ذيول نسـيمه   فالمســك من أردانه يتضــوع

رقصــت على دولابه أغصـــانه   فلها به ساق هنــاك ومســـمع

والمــد مد النيــل ذائب عسـجد   يغنى البــلاد فأهلهــا لا تخشــع

ما ضرها أن الســـماء جبينهــا   جهــم وأن عيونهــا لا تهمــع

يمسى دروعا بالصــبا موضــونة   ويظل — ما سكنت — سيوفا تلمع

ويستمر الشاعر فى ابراز ملامح جمال الروض التى تنطق بها صفوف الزهر التى تتلامس وتتهامس ، ويبين أن أيام العيد اذا أتت غلا يحق أن يجتمع الناس الا فى هذه الأماكن .. يقول : — (٣٢)

وبهــا لأفــواه الأقــاحى مع أزا   هرها حــديث بالمنــاخر يســمع

---

(٣١) ديــوان ابن الســاعاتى حـ١ ص ١٢٣ وورد فى تقــديم هذه الأبيات : (وكتب الى صــديق لــه نزل بمكان مستحسن من الجزيرة بمصر ولم يدعه اليه يصف المكان ويفضله ويداعبه) .

(٣٢) نفس المرجع والصفحة .

والعيـــد قد وافى وليس لمثلـه   الا بمثـل ربوعهـا مســتمتع
فـادع المشـوق اليـك أول مرة   ولـك الأمـان بأنـه لا يـرجع

وجمال الطبيعة فى مصر لا يقتصر عليه مكان دون غيره ، وانمـا ينتشر فى ربوعها ، ففى كل مكان نجد مظهرا من مظاهر الطبيعـة ، ولا يترك الشعراء الفرصة دون أن يصفوه ، فمدينة « أسـيوط » من مدن الصعيد الشهيرة هى جميلة المنظر حولها بساتين النخل وسورها سور عتيق [٣٣] يصفها ابن الساعاتى ويصف يوما سعد به فيها قلما يجود الزمان بمثله .. والمكان لا يكون جميلا دون مقومات تتضح فيه وهنا يصف الشاعر جمال تلك الليلة التى بدا فيها البدر ينشر أشـعته فى ظلمة الليل فأشاع فيها النور ، وقد امتد بالشاعر السهر واسـتطاع أن يرى مولد يوم جديد ، فرأى الطبيعـة تطل عليه بتصـوير قدرة الخالق سبحانه وتعالى ، فرأى الروض بأشجاره وأزهاره حين يتساقط عليه الندى ، فيبدو على الأغصان كأنه لؤلؤ منثور ، لكن ما ان تصل اليه هبات النسيم حتى يتساقط لرقته ثم يمتد الوصف الى صفحة الماء حيث يجعلها الشاعر صحيفة مقروءة حين تمر عليهـا الرياح فكأنهـا تسطر حروفا تحتاج الى وضع النقاط عليها فتتولى الغمامة هذه المهمة وتفصح عن معنى هذا الكلام بما تسكبه من قطرات ، هنا يبدأ الطير فى قراءة هذه المعانى بصوت جميل يغرد به .. يقول الشاعر [٣٤] :

لله يـوم فى سـيوط وليلـة   صـرف الزمان بأختهـا لا يغلط
بتنـا وعمـر الليل فى غلـوائه   وله بنور البـدر فـرع اشـمط
والطل فى سلك الغصـون كلؤلؤ   نظم يصـافحه النسيم فيسـقط
والطير يقرأ والغـدير صـحيفة   والريح تكتب والغمـامة تنقط

(٣٣) رحلة ابن جبير ص ٣٥ .
(٣٤) ديوان ابن الساعاتى جـ ٢ ص ٤ .

وتهفو نفس الشاعر الى مدينة « المحلة » ، ويدعو لها بالسقيا فى فى كل وقت تصبو اليــها القلوب وما أكثر هذه الأوقات ، فالحب لهذه المدينة لا ينتهى ، وليس ذلك بغريب ففيها جمال الطبيعة التى تمتــع الأنظار ، فالروض فيها مزدهر ، بالأشجار ، والأزهار التى تأخذ أشكالا متعددة ، وهى تبدو فى كل فترة من فترات النهار ذات جمال مختلف ان الروض ممتلىء بزهر الأقاحى والشقيق ، ولكل خاصيته ، وحين تمر ريح الصبا على الروض فكأنها تلثم زهرة الاقاحى أو تقبل خد الشقيق الأحمر . وما أجمل أن تمر الرياح بين الأشجار فان الغصــون تتمايل وتتلامس وتتعانق ، وهنا يبدو اختلاف وتعدد ملامح الجمــال ، فهى مرة تقبل الأزهار ، ومرة تعانق الأغصان التى يظهر فيها وردها الأحمر كأنه العقيق ، ومرة أخرى حين يأتى وقت الأصيل تبدو هذه الأغصان كأنها عرائس فى لحظة زفافها ، فقد أخذت لون الشمس فى ذلك الوقت وعبقت منها رائحة الزهر ، فجمعت بين حسن المنظر وحسن الرائحة . يقول الشاعر : ـــ (٣٥)

سقى الله ، أطلال المحلة ما صــبا الى ربعها المأنوس قلب مشوق

وطلت دمــوعا أو غيوثــا بتربها ســيوف لحاظ أو ســيوف بروق

اذ ما الصبا هبت على الروض قبلت ثغور أقاح أو خــدود شــــقيق

وان خطرت فى يافع الدوح عانقت قدود غصــون وشــحت بعقيق

وان جنحت شمس الأصيل حسبتها عــرائس تجلى ضــمخت بخلوق

ـ وصف الأزهار والثمار : ـ

من خلال وصف الروض كان الشعراء يعرضون لوصف الأزهار فوجدنا أمثلة لوصف زهرة الشقيق وزهرة الأقاحى وغير ذلك ، ولكن

---

(٣٥) ديوان ابن الساعاتى جـ٢ ص ٥

يتراءى للشعراء فى بعض الأحيان أن يتجهوا لوصف زهرة واحدة بعينها بعيداً عن تجمعها مع غيرها من زهر الرياض يتلمسون خصائصها وما تميزت به ، فنجد ابن سناء الملك يصف زهرة السوسن ، ويبين انها مما تهفو اليها النفوس ويعبر عن رقتها حتى أنها تكاد تذوى من مجرد النظر اليها قبل أن تمتد اليها يد باللمس . يقول (٣٦) : —

وسوسن أحوى جنى الغرس يذوى من اللمحة قبل اللمس

أوراقه فى رقة الدمقس تصبو الى تقبيلهن نفسى

وأما حين يصف زهرة الجلنار ، فانه يقول فيها (٣٧) :

وجلنار على غصون وكل غصن بهن مائس

يحكى الشراريب وهى خضر وهو بأطرافها كبائس

وفى بستان بالاسكندرية حله بعض الأدباء ، نثر بعض الحاضرين ياسمين على بركة ماء ، فقال بعض الحاضرين يصف ذلك(٣٨) . فقال العباس بن طريف الخراط الاسكندرى .

نثروا الياسمين لما جنوه عبثا فاستقر فوق الماء

فحسبنا زهر الكواكب تحكى زهر الأرض فى أديم السماء

وقال فى ذلك على بن ظافر : —

نثروا الياسمين فى لجة الما ء فخلنا النجوم وسط السماء

فكأن السماء فى باطن الأ رض أو البدر طف فوق الماء

---

(٣٦) ديوان ابن سناء الملك ص ٥٦٩ .
(٣٧) نفس المرجع والصفحة .
(٣٨) بدائع البداءة ص٢٤٧ .

ويسمع أبو عبد الله بن الزين النحوى القصة وما قاله الرفاق فى وصف الزهرة ، فيقول : —

نثر للغلام الياسمين ببركة مملوءة من مائها المتدفق
فكأنما نثر النجوم بأسرها فى يوم صحو فى سماء أزرق

كذلك اتجه الشعراء الى وصف الثمار وهى من مظاهر الطبيعة أيضا ، وان كان الوصف لها جاء من خلال وجودها فى أيديهم وليس فى مكانها على الأغصان أو وسط الأشجار ، فالبهاء زهير يصف « الموز » الذى أتاه من صديق له ، ويوضح أنه يتميز بجمال رائحته ولونه وطعمه ، فرائحته هى المسك ولونه كالذهب وطعمه كالعسل يصف جمال منظره وهو منضدد فى طبق فيقول : —[39]

يا حبذا الموز أرسلته لقد أتانا طيبا من طيب
فى ريحه أو لونه أو طعمه كالمسك أو كالتبر أو كالضرب
وافت به أطباقه منضدا كأنه مكاحل من ذهب

وأما ابن مماتى فيروق له منظر أترجة فى يد القاضى الفاضل فيقول : —

لله ، بل للحسن أترجة تذكر الناس بأمر النعيم
كأنها قد جمعت نفسها من هيبة الفاضل عبد الرحيم

ويصف الشعراء « النارنج » ويصورونه قناديل من الذهب ،

---

(٣٩) ديوان البهاء زهير ص ٢٣ .

ويبدع فى وصفه على بن ظافر فهو مرة يقول فى وصـــفه وعليه طلع مفروط : ـــ [٤٠] .

انظر الى النـــارنج والطلع الذى جـــاء الغـــلام بطلعـــه متمايلا
فكـــأنما النارنج قد صـــاغوه من ذهب قنـــاديلا وذاك ســـلاسلا

ومرة أخرى يقول : ـــ [٤١] .

أيا حسن صدر فيه مفروط طلعه يقـــارن نارنجـــا بـــه متـــلالى
لقد أحسن الشخص الذى جمعتهما يداه وأهـــدى فيـــه كل جمـــال
قناديل تبر فى ســـلاسل فضـــة والا عقيـــق فى ســـــموط لآلى

ـــ وصف الطبيعة الحيـــة :

للطبيعة الحية نصيبها عند شـــعراء هذه الفترة وان لم يكن لها الكثرة مثل الطبيعة الساكنة ، ومن أمثلة ذلك ما جاء به ابن سناء الملك فى وصفه للفرس ، فتحدث عن لونه الأشـــقر ، ويبـــدى اعجـــابه بسرعته الفائقة التى تجعل الأرض تطوى كأنها كتاب تطوى صفحاته واحدة بعد أخرى ، انه سريع القفز والجرى ، حتى ليعجب صاحبه أهو مارد جن قادر على ما لا يستطيعه غيره ، أم أنه شـــهاب ينطلق بعيدا لا يلحق به أحد . يقول : ـــ [٤٢] .

وأشـــقر مـــا زلت من جـــريه أطـــوى بـــه البيـــد كطى الكتاب
كأنمـــا أرجلـــــه فى العـــــلا أنـــامل تســـرع لقط الحســـــاب

---

(٤٠) بدائع البدائه ص٢٦٦ .
(٤١) نفس المرجع والصفحة .
(٤٢) ديوان ابن سناء الملك ص ٥٦٥

يجرى فلا أعلم عجبنا له : أمنار دعا أبصره أم شهاب
كم قصة للبرق من أجله فليت شعرى كيف حال السحاب

ولابن الساعاتى أبياته التي يتضح فيها أنه يصف موقف صيد ، فهو يصف كلبا وفرسا فى سرعتها ، ويوضح أن الكلب يتمتع بقلب قوى وبسمع حاد يتنبه لأقل صوت ، كما أنه قوى الأنياب مما يعينه على الفتك بفريسته ويصوره فى انطلاقه وشد سرعته كأنه سهم أو قوس .

كذلك يصف الفرس فى سرعته كأنه طائر له أربعة أرجل ، وتلمع عيناه بالذكاء الذى يعينه على تفهم ما يريده منه صاحبه ، فهو ينطلق كالبارق الى أعلى أو يهبط الى أسفل كالسيل المنحدر تجاوبا لما يحسه مطلوبا منه . يقول : — (٤٣) .

قد اغتدى والصبح عارى المطلع بأصمع القلب حديد المسمع
مؤلل الأنياب احوى المدمع كأنما علت بسم منقع
يمرق من جلد الظلام الأسفع أخذ نجوم الليل نحو التهيع
كالقوس أو كالسهم فى التسرع لم أر برقا غيره لم يلمع
ولا رأيت طائرا بأربع أمهق حسود رماح الأزرع
يلقى الوحوش كغراب أبقع وناظر بمقلتى مروع
يكاد من فرط الذكاء المشبع يجيب وهم ربه وما دعى
ينصب كالسيل جرى فى موقع ويعتلى كالبارق الملمع

---

(٤٣) ديوان ابن الساعاتى حـ٢ ص ١٢٢ .

ومن طريف ما وصفه القاضى الفاضل ما وصف به زنبورى العسل واللسع حيث يقول : —(٤٤) ٠

ومغردين تجـــاوبا فى مجلـــس ففناهمـــا لأذاهمـــا الأقـــوام
هذا يجود بعـــكس ما يـــأتى به هذا ، فيحمد ذا ، وذاك يذام

— وصف الظواهر الطبيعية :

من مظاهر وصف الطبيعة ما نجده من وصف الظواهر الطبيعية التى لم يتدخل فى صنعها بشر ، كالشمس والقمر والنجوم ، فكلهـــا يسيرها الله سبحانه وتعالى كما أراد لها ٠

ولقـــد عاش الشعراء فى رحـــاب الطبيعـــة فى مصر وأسرتهم ملامحها وأصبحوا يجيلون الطرف ما بين البـــدر والهـــلال والشـــمس والنجوم ، ويرون صورا جميلة تقدح زناد شاعريتهم فيترجمون ذلك أبياتا من الشعر تخلد بها تلك الرؤية لهذه الطبيعة ٠

— وصف البـــدر والهـــلال :

ان ضوء البدر أو منظر الهلال له تأثيره فى نفس الشـــعراء فهو رفيق الرفاق الذين يسهرون ويســـمرون ٠ وتثير لحظـــة الغروب حين تغيب الشمس خيال الشعراء بنزول ظلام الليل الذى يبدو فيه شكل الهلال ويتخيله الشاعر سوارا يلمع ، وتزيد حاســـته الشعرية عنـــدما يتصور أن الشرق قد أعار الشمس للغرب ، فأعطـــاه الغرب رهانا فى مقابلها تمثـــل فى نصف سوار ألا وهو الهـــلال ٠٠ يقول الشـــاعر ابن المنجم : — (٤٥) ٠

---

(٤٤) الجامع المختصر ابن الساعى حـ٩ ص ٢٨ ٠

(٤٥) بدائع البـــداثة ص ٢٤٤ ٠

وعشاء كأنما الأفق فيه لازورد مرصع بنضار
قلت لما دنت لمغربها الشمس ولاح الهلال للنظار
أقرض الشرق صنوة الغرب دينا را فأعطاه الرهن نصف سوار

وعلى بن ظافر يرى أن ضوء الهلال قادر على أن يطغى على ضوء النجوم ، ويتمثل النجوم زهرة النرجس نبتت فى روضة من الظلام الممتد .. وأن الهلال منجل يحصدها ، يقول :ـ (٤٦) .

أما ترى الهلال يخفى أنجم الـ أفق ينور وجهه الوسيم
كمنجل من ذهب يحصد من روض الظلام نرجس النجوم

وما أجمل صورة البدر حين يتآلف مع السحاب الذى يمر به ، فهو مرة تغطيه السحب ، وحين تنقشع عنه ينكشف ويبدو ضوؤه قويا ولا يملك الشاعر أمام هذه الصورة غير أن يصوره حسناء تخفى وجهها مرة وتحجبه عن الأعين ثم تكشف عنه النقاب وتسفر عن جمالها يقول ابن الساعاتى :ـ (٤٧) .

ولقد رأيت البدر تحت غمامة يخفى ويبدو حينما تتقشع
فكأنه خلل السحاب خريدة حسناء تحجب وجهها وتطلع

والشعراء يغرمون بوصف البدر حين تنعكس صورته على صفحة الماء ويقول الثعالبى :ـ (ان الشعراء قد أكثروا من وصف القمر على الماء) (٤٨) وهنا يصفه ابن الساعاتى ويصوره فى صورة جميلة حيث

---

(٤٦) المرجع السابق ص ١٨٨ .
(٤٧) ديوان ابن الساعاتى حـ١ ص ٢٧٢ .
(٤٨) يتيمة الدهر حـ١ ص ١٠٨ .

يجعله عروسا تجلى وقد أحاطت بها الأضواء تقبلها فى ليلة زفافها ·· يقـــول : ــ (٤٩) ·

أما ترى البدر يجلى بالغدير وقد حفت به قضب بالنور فى لثم

ــ وصف النجوم والكواكب : ــ

وصف الشعراء فى مصر أيضا النجوم والكواكب ، وبدوا كأنما إرتبطت عيونهم بالسماء ، فهم يرون ملامحها فى كل وقت ·· فالشاعر على بن ظافر يصف كوكبى الزهرة والمشترى ويجمع بينهما ، انه يرى بعينيه ما لا يراه غيره من الناس · فقد أشرق ذلك الكوكبان ، ورأى الشاعر فى كل منهما ما ميزه ، وكما يقول الشاعر نفســـه فى ذلك : « وقع لى أن أشبههما بلهذم من ذهب وزج من فضة لاصفرار الزهرة وشدة بياض المشترى » ثم يقول : ــ (٥٠) ·

أما ترى المشترى وقد قارن الـ (م) زهــرة يبغى دنــو مقتــرب

كصـــعدة زجهـــا ولهذمهـــا ذاك لجـــين وذا مــن الـذهب

وأما الشاعر الخطير بن مماتى ، فانه يرى الصــورة التى يصف بها النجوم متجددة مع كل نجم ، لقد رأى البدر يظهر ضوؤه الساطع كأنه جبين مشرق بين جدائل شعر أســود هو الليل ·· ثم يرى نجم الثريا وكأنه يرقب البدر وتنتابه غيرة ، ولأن نجم الســهيل يلمــع ويخبو ، فالشاعر يصوره كأنه فؤاد يخفق ونجم السها خفى لا يظهر الا قليلا ، فهنا يجعله الشـــاعر سرا فى قلب الليل لا يذيعــه أو

---

(٤٩) ديوان ابن الساعاتى حـ٢ ص ٦

(٥٠) بدائع البدائه ص ٧٧ ·

يغشيه • وينهى وصفه للجوزاء ويجعل منها محاربا يحمل السلاح •• يقـــول(٥١) :

كأن ظلام الليل اذ لاح بدره دجوجى شعر لاح منه جبين
كأن الثريا ترقب البدر غيرة فقد هجرت منها المنام عيون
كأن سهيلا فى مطالع أفقه فؤاد مروع خامرته ظنون
كأن السها تبدو أوانا وتجتلى لدى الليل سر فى حشاه مصون
وقد مالت الجوزاء حتى كأنها كمى بخطى السماك طعين •

وهناك من النجوم ما تسمى « نجوم الصباح »(٥٢) تغيب بطلوعه، ويقول فيها أبو محمد القلص ، ويصورها قائمة على مراقبة الصباح ، فانه يعيش ما دام الصباح بعيدا ، واذا ما لاح فانه يغرب ، ويصور الشاعر أن النجم عاشق يهيم حبا لمعشوقه ، وأن الصباح ما هو الا رقيب عليه أن يحذره ، فاذا ظهر اختفى هو • يقول : —(٥٣) •

وكوكب من ضرام الزند مطلعه تسرى النجوم ولا يسرى اذا رقبا
يراقب الصبح خوفا أن يفاجئه فان بدا طالعا فى أفقه غربا
كأنه عاشق وافى على شرف يرعى الحبيب فان لاح الرقيب خبا

— وصف الشمس : —

رسم ابن قلاقس صورة للشمس وقت غروبها على صفحة النيل• فوصف حمرة الشفق الذى تخلف عنها ، ثم صورها حين غابت كأنها غرقت فى مياه النيل ، وتبدو الصورة غريبة حين جعل الشمس تحترق

---

(٥١) الخريدة قسم شعراء مصر حـ١ ص ١١٥ •
(٥٢) بدائع البدائه ص ٢٧٢ •
(٥٣) نفس المرجع والصفحة •

بالغرق ، ومن براعة الشاعر فى الوصف انه جعل الهلال يشارك فى رسم تلك اللوحة فقد جعل منه منقذا يمد يده الى الشمس داخل النهر كى ينجيها من الغرق • •

ومع أننا نلمس فى الشطر الأخير من الأبيات تأثر الشاعر بما ورد فى شعر ابن المعتز فى تشبيهه للهلال بأنه زورق من فضة [٥٤] ، فاننا نجد جـدة الصورة حيث يقول[٥٥] :

انظر الى الشمس فوق النيل غاربة	واعجب لما بعدها من حمرة الشفق
غابت وألقت شـعاعا منه يخلفهـا	كأنمـا احترقت فى المـاء بالغرق
وللهـلال وقـد وافى لينقـذها	فى اثرها زورق قد صيغ من ورق

تلك لمحات من وصف الطبيعة ، نفذت اليهـا بصـيرة الشـعراء فأضافوا اليها من روحهم وأبانوا عن ملامح الجمال فيها • وان هـذه الصور التى عبر بها الشعراء فى العصر الأيوبى بوصـف الطبيعة فى مصر كفيلة بأن تدحض رأى د / سيد نوفل الذى يقول : (ان طبيعة البلاد المصرية لم تظفر من التنويع بما يهيىء تمام الشـعور بتغـير أحوالها •) فالشـعراء فى العصر الأيوبى لم يبخلوا بابراز جوانب كثيرة من وصف الطبيعة فى مصر • ويقول د / شوقى ضيف[٥٦] :

(ان المادة التى تركتها مصر فى شعور الطبيعة لا تتخلف كثيرا عن المادة التى تركتها الأندلس فقد تغنى الشعراء بمشاهد مصر ومناظرها الجميلة) •

---

(٥٤) فى قوله : ـــ انظر اليه كزورق من فضة
قد أثقلته حمولة من عنبر

(٥٥) الخطط جـ١ ص ٦٤ وأيضا بدائع البدائه ص ٢٥٨ •

(٥٦) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ص ٤٦٠ •

لقد كانت مصر حقا جديرة بأن ينظر اليها الشعراء فى حب يأخذ عليهم أنفسهم وينطلق بألسنتهم فى شعر أخاذ يعيش مدى الأزمان • ولقد أحسن البهاء زهير حين أوضح فى أبيات له أنه يراها جنة تروق العين والقلب وأمام طبيعتها الخلابة ينكر على نفسه أن يتركها ويرحل يقول : — [٥٧] •

أأرحل عن مصر وطيب نعيمها ... فأى مكان بعدها لى شائق

وأترك أوطانا ثراها لنا شق ... هو الطيب لا ما ضمنته المفارق

وكيف وقد أضحت من الحسن جنة ... زرابيها مبثوثة والنمارق

أسكان مصر ان قضى الله بالنوى ... فثم عهود بيننا ومواثق

فلا تذكروها للنسيم فانه ... لأعثالها من نفحة الروض سارق

---

(٥٧) ديوانه ص٢٣٠ .

الفصل الخامس

دراسة فنية لشعر الوصف

فن الوصف من أشد الفنون تأثرا بالبيئة ، وهو مرآة صادقة انعكست عليها ملامح المجتمع المصرى فى العصر الأيوبى الذى وجد استجابة قوية ورائعة لدى شعراء هذا العصر ، فاستطاعوا أن يبرزوا ما كان من مظاهر متعددة فى هذا المجتمع الذى تزخر بكثير من الأحداث السياسية وصور الحياة الاجتماعية وصور الطبيعة الخلاقة التى تجذب خيال الشعراء وتأسرهم بمقوماتها فلا يملكون أمامها الا الاستجابة بما حباهم به الله من موهبة النظم والتعبير •

لذا نستطيع أن نقول أن أبرز هذه الخصائص أن الشعر جاء مصورا ومعبرا عن البيئة المصرية فى العصر الأيوبى ، وأن الشعراء فى هذا العصر والأدباء كانوا بحق (مرآة أمتهم الصافية التى تصور آلامها وآمالها ، ومواقفها ، وأن الأديب من أمته ولها يذيع أفكارها ومشاعرها وكل ما هزها وأثر فيها من أحداث •) (١)

فالشعراء قد اندمجوا فى الحياة المصرية بكل ما أوتوا من قوة ، وعاشوا فى أعماقها ، صوروا المعارك والحروب ، وأبرزوا صور المجتمع بأحواله المتعددة •• صوروا الحياة اللاهية الصاخبة حيث ينعم أصحابها بمتع الحياة وترفها ، وصورة الحياة التى عاش أصحابها بعيدا عن هذا الجانب فكان من الشعراء من صور عزوف البعض واتجاههم الى الزهد والتصوف أو من صور ملامح الحياة الخشنة القاسية • كذلك عاش الشعراء فى رحاب الطبيعة يستلهمون ملامحها ومواطن الجمال التى أبدعتها يد الخالق سبحانه وتعالى •

ان شعر الوصف أوضح شخصية مصر ، وأظهر أن كل ما فى مصر

---

(١) فى النقد الأدبى د / شوقى ضيف ص ١٩١ •

من نتاج بيئتها وموقعها فاذا تحدثنا عن وصف المعارك والحروب التى دارت فيها وجدنا أن ذلك كان نتاج موقعها الجغرافى وأنها كانت الخط الواقى للمنطقة الاسلامية فى هذه الفترة وكم كانت دفاعا قويا ضد هجمات الصليبيين حماية للشام وأمنا لنفسها • وكذلك الأمر فيما يتصل بوصف المظاهر الحضارية والاجتماعية ، ووصف الطبيعة •

لقد وصف الشعراء الحروب والمعارك بانتصاراتها وهزائمها •• ودارت هذه الأوصاف داخل البلاد وخارجها ، كذلك صوروا المجالس اللاهية والمجالس الأدبية الجادة ، وأبرز الشعراء ما تمتعت بـه مصر وأهلها من ابراز مجالس الفكر والأدب وما تمتع به المصريون من سرعة البديهة وماعرفوا به من ميل الى الدعابة والفكاهة •• فكان ذلك تأكيدا على أن مصر بموقعها وتاريخها كانت تتذوق الألوان الثقافية وتختار منها ما يتفق مع طبيعة أهلها • [٢] •

ومن ملامح تصوير المجتمع المصرى فى صورة صادقة أننا نجد الأسماء التى تدل على مسمياتها فى كل موضوعات الوصف ، فنجد اسم « دمياط » مثلا فى وصف المعارك التى دارت فى هذه البلدة المصرية •• وفى وصف المظاهر الاجتماعية نجد اسم « الخليج » (وبركة الحبش) « وبركة الفيل » و (الجيزة) و (الاسكندرية) و (أسيوط) ان مثل هذه الأسماء هى حقيقة المجتمع المصرى ، فان من يقرأ هذه الأسماء يدرك تماما أنه يقرأ عن مصر •• فما بالنا اذا قرأ اسم النيل ؟ .

ذلك هو التصوير الصادق والتعبير عن البيئة المصرية فى العصر الأيوبى من شعراء هذا العصر الذين اندمجوا فى المجتمع وكانوا خير مصور له ، ولذا نجد د/شوقى ضيف يقول[٣] (ان الطوابع

---

(٢) الحياة الفكرية فى مصر د / عبد اللطيف حمزة ص ٧ •

(٣) الشعر وطوابعه الشعبية المقدمة ص ٥ •

الشعبية فى الشعر تعنى تصوير الشعراء لحياة أمتهم بآمالها وآلامها سواء فى عصور الابتهاج أو عصور الابتئاس؟ .

٢ — ما يتميز به شعر الوصف لمصر فى شعر الأيوبيين ذلك هو العاطفة والصدق الفنى ، واذا قيل « أن الأدب فن جميل لا يسبح ولا يحلق فى الجو والنفس الا بجناحى الفن وهما العاطفة والخيال »[٤] ، فاننا سنلمس ذلك قويا فى الموضوعات المتعددة من شعر الوصف فى مصر ، ولعل ذلك مرتبط بالفكرة السابقة وهو تعبير هذا الفن عن البيئة المصرية ، فالشعراء أنفسهم مرتبطون أشد الارتباط بتلك البيئة فلابد أن يكون شعرهم عنها صادقا فان مصر هى الأم الرءوم سواء لمن كان من أبناء أرضها أو ممن وفد عليها وعاش فيها أيام عمره ، أو ممن تهيأت له سبل الحياة فيها ثم رحل بعيدا عنها حيث أبعدته عنها الغربة .. انها مصر التى تحتضن كل قريب أو بعيد ، واذا قدر لأحد أن يبتعد عنها ، فهناك وشائج بينهما تدفعه الى العودة الى احضان الأم .

ونلمس صدق العاطفة فى كل ما وصف به المجتمع المصرى من شعراء العصر الأيوبى .. ولعل أبرز الموضوعات التى تتضح فيها هذا العنصر وصف المعارك والحروب .. ذلك أن هذه الأشعار لست أوتار القلب عند الشعراء ، فقد كانت تصور مشاعرهم نحو بلادهم التى يريد العدو الكافر أن يسلب حريتها وينال من عقيدتها .. لقد كانت الحروب الصليبية حربا بين الاسلام والكفر ، لذا نرى أن الشعراء هبوا بصيحة واحدة معبرين عن معانى الأسى حين ينهزم المسلمون ، وتتعالى صيحات النشوة حين ينالون الظفر والانتصار .. لقد كانت عاطفتهم جياشة فى تصوير كل من الجانبين . ان الاسلام هو المفدى ، وهو أهم ما يسعى اليه المحاربون المسلمون لفدائه .. ان هذه الحروب لم

---

(٤) الأصول الفنية للأدب عبد الحميد حسن ص ٩ .

تكن غلبة على أعداء دفعهم الى الغزو حب لسلطان أو امتلاك لأرض .. وانما كانوا أعداء أرادوا هزيمة الدين الاسلامى ، ولهـذا نجد أن الشعراء قد ذابت بينهم الفوارق ، وتبـددت بينهم المسـافات ، ان الانتصار يملأهم بالنشوة فى أى مكان فى مصر أو فى الشام أو فى العراق .. كذلك تدمى الهزيمـة قلوبهم فى أى من هذه البلدان .. فالانتصار أو الهزيمة لا يخص ملكا أو موطنا .. وانما الاسلام ..

ومن معانى صدق العاطفة عند الشاعر البهاء زهير ما صور به احساسه بالتفاخر على الأعـداء الذين نالت منهم الهزيمة وجـاءوا بانكسارهم يجرون أذيال الخيبة .. وجاءوا الى الملك الكامل فى خضوع ومهـانة يعبر عنهـا الشـاعر بقوله[٥] :

غرويت منهم ظـامىء البيض والقنـا
وأشـبعت منهم طاوى الذئب والنسـر

وجـاء ملـوك الروم نحـوك خضـعا
تجـرر أذيـال المهـانة والصـغر

أتوا ملكـا فوق السـماك محـله
فمن جوده ذاك السـحاب الذى يسرى

فمـن عليهـم بالأمـان تكـرما
على الرغم من بيض الصوارم والسمر

وفى أبيات أخرى يعبر الشاعر عن صدق احسـاسه وانفعـاله بانتصار الاسلام فنجد فى هذه الأبيات ما يدل على ذلك من أن هذا الانتصار يعد فى ميزان الملك الكامل يوم الحشر .. وأن هذا الظفر يصل الى مكة مهد الاسلام والى الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم

---

(٥) ديوان البهاء زهير ص ١٢٣ .

صاحب الرسالة .. وما ذاك كله الا لأن دمياط قد جلا عنها كابوس الكفار وعادت اليها اقامة الصلاة فنراه يقول :

لیهنك ما أعطاك ربك انها مواقف عن الغير فى موقف الحشر
فمن مبلغ هذا الهناء بمكة ويثرب ينهيه الى صاحب القبر
به ارتجعت دمياط قهرا من العدى وطهرها بالسيف والملة الطهر
ورد على المحراب منها صلاته وكم بات مشتاقا الى الشفع والوتر
كفى الله دمياط المكاره انها لمن قبلة الاسلام فى موضع النحر

وهذا ابن النبيه الذى يمدح الملك الأشرف موسى الذى شارك فى انتصار المسلمين بدمياط بفتحها سنة ٦١٨ هـ ويقول[٦] :

يستوجب النصر من صحت عزائمه ويقتنى الشكر من عمت مكارمه
يا يوم دمياط ما أبقيت من شرف لمن تقدم الا أنت هادمه
عذراء نادت على بعد فأنقذها ملك غيور مصونات كرائمه

...

طهرت محرابها العالى ومنبرها من رجسهم بعد ما ارتجت قوائمه
يا باذلا فى سبيل الله مهجته لله لا للذى حازت مغانمه
لولاك زازل قبر المصطفى ووهى وأصبح البيت قد حلت محارمه .

ان هذه العاطفة كما سبق القول لم تقف عند احساس المصريين ذلك أن العاطفة كانت أقوى من الاقتصار على الجنس المصرى أو

---

(٦) ديوانه ص ٨٣ ، ٨٤ .

العربى ، وانما شملت عاطفة الدين .. دين الاسلام .. ان الدين عند الله الاسلام .. ولا عجب أن يقول البهاء زهير :

وما فرحت مصر بذا الفتح وحدها
لقد فرحت بغداد أكثر من مصر

ونستكمل الصورة التى رسمها ابن النبيه ، فى وصف هزيمة الكفار ، وكيف ان عاطفته صورت حسرة الأعداء يقابلها تصوير أحاسيس المسلمين فى انتصارهم حيث يقول : ـ

ذلوا لملك أعان الله صاحبه موسى سليمانه والسيف خاتمه
وسلموها وردوا أهلها ومضوا والثغر من فرح يفتر باسمه
كأنهم ابصروا ما قد مضى زمنا كما يرى مزعج الأحلام نائمة
عادوا بحزن الى أوطانهم ومضوا وكل بيت نعاهم ثم مأتمه
تبكى القسوس على أسرى ملوكهم وذاك أمر مضى بالعدل حاكمه .

ولعلنا نتذكر ما مر أيضا فى الأبيات التى عبر فيها الشعراء عن فرحتهم فى التخلص من الحكم الفاطمى فى مصر واقامة حكم بنى أيوب .. فقد استطاع العماد أن يعبر عن احساس الفرح وعاطفته الصادقة ، فقال مخاطبا نور الدين : ـ (٧) .

بملك مصر أهنى مالك الأمم فاسعد وأبشر بنصر الله عن أمم
آثار عدلك فى الاسلام واضحة وسره لك باد غير مكتتم
سر لتقطع ما للكفر من سبب وأن توصل ما للدين من رحم

---

(٧) الروضتين حـ١ ص ٤٤٣ .

ان كل هذه الأحاسيس التي عبر بها الشـعراء عن فرحهم وأسـاهم يعطينا تأكيدا على صدق الشعراء فى عاطفتهم نحو بلادهم •• فمصر هى الوطن والملاذوكأنهم جميعا يقولون مع السلطان نور الدين (أمان مصر أهم من كل شىء) .

وحين نتكلم عن احساس الشعراء وصدق عاطفتهم فى وصف الطبيعة أو وصف المظاهر الاجتماعية والحضارية ، فلن يختلف الرأى عندهم عما وجد فى وصف الحروب والمعارك •• فهم صادقو التعبير فى تصوير ملامح الجمال والحديث عن مباهج الحياة فى مصر ، كذلك هم صادقو التعبير عما يجدونه من صورة سيئة لمجتمعهم ••

اننا نذكر ما نظمه ابن الساعاتى فى وصف مدن مصرية مثل أسيوط والمحلة ويبين فيها ملامح الجمال •• ان تلك الأوصاف لا تصدر الا عن انسـان محب لهذه الأماكن •• فهو مرة يقول [٨] :

لله يوم فى سـيرط وليـلة صـرف الزمـان بأختهـا لا يغلط

ومرة أخرى يقول : — [٩] .

سـقى الله أطلال المحلة ما صـبا الى ربعها المأنوس قلب مشـوق

ان كل كلمة فى أبيات القصيدة تنم عما يحمله الشاعر من معـانى الحب نحو هذه البلاد التى أحبها وعاش ينعم بملامح الجمال فيها .

وهل يقول البهاء زهير أبياته التى يستدعى فيها صديقه لقضاء

---

(٨) ديـوانه حـ٢ ص ٤ .

(٩) المرجع السابق حـ٢ ص ٥

الوقت معه دون أن تكون مصاحبة له عاطفة جياشـــة تعبر عن صـــدق شعوره حيث يقول : ــ (١٠) .

رق فى الجـــو نســـيم فتفضـــل يــا نـــديم
مـــا تـــرى كيف أمحت من حــلة الليــل رقـــوم

وقال الأسعد ابن مماتى تلك الأبيات التى تصور انبهاره بلحظة كسر الخليج فأسعفته شاعريته بنظم البيتين التاليين وفيهما تتبدى صدق العاطفة حيث يقول : ــ (١١)

خليـــج كالحســـام له صـــقال ولـــكن فيـــه للرائى مســـرة
رأيت به المـــلاح تجيـــد عوما كـــأنهم نجـــوم فى المجـــرة

والأمثلة متعددة سبق ذكرها فى مجالاتها .. ولذا فان المجــال هـــنا يدفعـــنى الى الرد على القول الذى يؤيد من أجمع على أن أدب الطبيعة فى العربية ظاهرى ، فلاامتزاج ولا انـــدماج ولا مجرد الف ومصاحبة ، وأن الشأن غير هذا عنـــدما عبر العرب البحر ، فالشـــعر الأندلسى فيه احساس دقيق بالطبيعة فهل السر فى ترف الحياة هناك مما أترف حسهم الى حد بعيد من العمق والأصالة ، هل الحروب الكثيرة التى طالعوها صباح مساء كان لها أثر فى ولعهم بمنع الحياة ، هل هو قربهم من الغرب الذى يحس الطبيعة احساسا قويا (١٢) .

وأقول ان الشعر الذى عرض فى وصف الطبيعة والمجتمع المترفه فى مصر فى العصر الأيوبى يدل دلالة وضحة على أن الأدب فى مصر

---

(١٠) ديوان البهاء زهير ص ٣٠٧ .

(١١) خريدة القصر قسم شعراء مصر حا ص ١٠١ .

(١٢) النيل فى الأدب د / نعمات فؤاد ص ١٨٨ .

لم يتوقف أو يتأثر بأى معوقات ، حقيقة ان المعارك والحروب الصليبية والداخلية فى مصر استمرت طوال العصر الأيوبى ، ولكن لم يكن كل المصريين محاربين ، بل ظلت العادات الاجتماعية مستمرة على حالها مثل عادة كسر الخليج مثلا والاحتفاء بوفاء النيل ، فالمصريون لم يقفوا عند حد المعارك والحروب وتركوا ما عداها من أمور الحياة والمجتمع، ان الحياة كبيرة أمامهم ولو أخذنا أحد الشعراء مثالا للتطواف فى جوانب المجتمع المتعددة فى شعره ، سنجد أن البهاء زهير ممن وصفوا المعارك بانتصاراتها وهزائمها .. وهو أيضا الذى كتب رسالة السلطان نجم الدين فى رده على الملك لويس وقال فيها[١٣] :

(أما بعد ، فقد وصل كتابك وأنت تهدد بكثرة جيوشك وعدد أبطالك ، فنحن أرباب السيوف وما قتل منا قرن الا جددناه ولا بغى علينا باغ الا دمرناه . والله وهو أصدق القائلين يقول : (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين .) [١٤] .

وهو أيضا الذى كتب عن النيل فى شعره حيث يقول :

حبذا دور على النيـ	ـل وكاسات تدور
ومسرات تموج الـ	أرض منها وتمور
وقصور ما لعيش	نلته فيها قصور
كل عيش غير ذاك الـ	عيش فى العالم زور

أليس هذا بكاف حتى ننفى ما قيل من أن الشعراء لم يقفوا أمام النيل للتأمل والفن .. لقد وصفوا مقياسه وخليجه ومياهه وعاشوا

---

(١٣) الرسالة كاملة ورسالة الملك لويس فى السلوك جـ ١ قسم ٢ ص ٣٣٤ ، ٣٣٥ . وانظر ص ٢٤ من هذا البحث .

(١٤) ديوانه ص ١٤٣ .

على ضفافه ينعمون بمباهج الحياة وعبروا عن صـدق عاطفتهم فى شـعر بقى معنـا فى كل الأوقات .

٣ — وحين نتكلم عن الأسلوب نجد أن أساليب الشـعراء فى تصويرهم ووصفهم قد تعددت وذلك تبعـا لتنوع الموضـوعات من وصف للمعارك الى الطبيعة الى وصف المبانى الى وصف الجسور الى وصف ملامح الترف والمجالس الاجتماعية ، وحين تتعدد الموضوعات فان الأساليب تختلف ، فما يتفق والحروب لا يتفق ووصف الطبيعـة مثلا ، والاهتمـام بالأسـلوب ضرورى ويتطلب فيه أن يكون جزلا قويا ، وليست الجزالة حوشية ولا خشونة ولا جفاء ولكن حال بـين حالين[١٥] ولا تتنـافى الجزالة مع الوضوح فالأسلوب الجزلى ليس من التكلف فى شىء ، كذلك لا تتنافى الجزالة مع رونـق الأسـلوب وحلاوته ورشاقته لأن الكلمات فيه ينبغى أن تكون سلسة سهلة الجرى على اللسان عذبة النطق .[١٦] .

ولقد اختار الشعراء من الأساليب والألفـاظ ما يتنـاسب مع الموضوع ولهذا نجدهم فى وصفهم للحروب والمعارك قد عبروا بألفاظ تتصف بالقوة والعنف ، فمثلا قال الشاعر ابن عنين :

فمـا برحت سمر الرماح تنوشهم بأطرافهم حتى استجاروا بنا منا

لقوا الموت من زرق الأسـنة أحمرا فألقـوا بأيديهم الينـا فأحسـنا

فنجد أن الشاعر قد اختار الألفاظ التى تدل على الحرب ومنها :

(سمر الرماح — تنوشهم — الموت — زرق الأسـنة) .

ويقول أيضـا :

أسـود وغى لولا وقائع سـمرنا لما لبسـوا قيدا ولا سكنوا سجنا

(١٥) أسس النقـد الأدبى د / أحمد بدوى ص ٤٩٧ .

(١٦) العمدة جـ ١ ص ٨٥ ، ص ١٢٣ .

فنجد أيضـا من الألفاظ ذات الدلالة على الحرب وأهوالها :

(وقائع سـمرنا ـ قيـدا ـ سـجنا) .

كذلك يقول ابن النبيه فى أبيـات تتنـاسب ألفاظهـا مع جو المعركة وتصـور أهوالهـا :

قتلا وسبيا وأسرا وانتهاب ثرى   لله كم حسنت تلـك الاسـاءات

شـنتنها غارات كالنـار محرقة   للكفر وهى على الاسلام جنات .

فنجد من الألفاظ ذات الدلالة : (قتلا ـ سبيا ـ أسرا ـ شننتها غارات ـ كالنار محرقة) . وكلها تعبر عن قسوة الحرب وما يعبر عنه موضوع الأبيات .

ومن أمثلة ذلك أيضا ما جاء فى وصف الصـيد حيث وصف ابن الساعاتى الفرس بقوله[١٧] :

قد اغتدى والصبح عارى الطنع   بأسـمع القلب حديد المسـمع

مؤلـل الأنيـاب أحوى المـدمع   كأنمـا علت بسـم منقـع

يلقى الـوحوش كغـراب أبقـع   ونـاظر بمقلـتى مـروع

فاننا حين ننظر الى تلك الأبيات سنجد فيها الدلالات على ما فيها من معانى الحرب فى مجال الصـيد والمنـاورة بين الفرس والوحش المصيد فنجد الفاظ (اسمع القلب ـ حديد المسمع ـ سـم منقع ـ مروع) .

وحين يكون موضوع الأبيات وصفا لمشـاعر المودة أو تعبير عن مجلس أنس أو وصف الطبيعة فان التعبير يختلف والألفـاظ ترق وكما يقول الجرجانى : (وصف الحروب والسـلاح ليس كوصـف المجلس والمدام ، فلكل واحد من الأمرين نهج هو أملك به وطريق لا يشـاركه

---

(١٧) ديـوانه حـ٢ ص ١٢٢ .

الآخر فيه [١٨] . من أمثلة رقة الأسلوب وألفاظه قول البهاء زهير : — [١٩] .

رق جو النسيم فتفضل يا نديم —

وكأن الفجر نهر غرقت فيه النجوم

فتجد الألفاظ تدل على نفسها مثل (رق — النسيم — الفجر — نهر) .

وقال أيضا على بن ظافر فى وصف مجلس ونلمس فى وصفه أنه اختار الألفاظ والأساليب المعبرة عن الجانب الحضارى الذى أضفاه اشعراء على صورهم : —

ومجلس أنس ضم شمل جماعة تعاطوا من الآداب كل رحيق

وحين أراد الشعراء وصف الأزهار اختاروا ما يناسب رقتها فقال ابن سناء الملك فى زهرة السوسن التى رآها لرقتها تكاد تذوب من مجرد اللمحة بالعين قبل اللمس : —

وسوسن أحوى جنى الغرس يذوب من اللمحة قبل اللمس

فالألفاظ تدل على رقة المعنى مثل (جنى الغرس — يذوب — اللمحة — اللمس .) .

وقال على بن ظافر فى وصف زهرة الياسمين : —

نثروا الياسمين فى لجة الما ء فخلنا النجوم وسط السماء

---

(١٨) الوساطة بين المتنبى وخصومه ص ٢٤ .

(١٩) ديوانه ص ٣٠٧ .

وهكذا وجدنا الألفاظ تعبر عن معناها الذى من أجله اختارها الشاعر فالجزال منها يستعمل فى وصف مواقع الحروب وفى قوارع التهديد والتخويف وأما الرقيق فيستعمل فى وصف الأشواق وذكر أيام البعاد واستجلاب المودات وملاينات الاستعطاف .[٢٠]

وفى هذا المجال لا ننسى أن أسلوب الشعر فى العصر الأيوبى مال عند بعض الشعراء الى السهولة والرقة التى قد تصل فى كثير من الأحيان الى الاقتراب من اللغة العامية ، ومن أمثلة ذلك ما قاله ابن مطروح فى أبياته الساخرة من لويس التاسع والتى كان يتداولها الناس فى الأحياء وهى[٢١] :

قل للفرنسيس اذا جئته مقال صدق من قئول نصوح
آجرك الله على ما مضى من قتل عباد يسوع المسيح
قد جئت تبتغى أخذها تحسب أن الزمر يا طبل ريح

وكذلك أبيات البهاء زهير : ـ[٢٢] .

لك يا صديقى بغلة ليست تساوى خردلة
تمشى فتحسبها العيو ن على الطويق مشكلة
تهتز وهى مكانها فكأنما هى زلزلة

فنحن نرى فى الأمثلة السابقة ما يتجه الى أسلوب العامية مثل « الزمر يا طبل » وكذلك فى الأبيات الأخرى : (مشكلة ، زلزلة) فضلا على الشطر الثانى من البيت الأول (ليست تساوى خردلة) . ومن

---

(٢٠) المثل السائر حـ١ ص ٢٤٠ .
(٢١) النجوم الزاهرة حـ٦ ص ٣٧٠ .
(٢٢) ديوانه ص ٢٩٤ .

الملاحظ أن الألفاظ الواردة تدرك حقيقة عاميتها من خلال تركيب الجملة وليس فى كونها لقطة مفردة مثلما نجد فى البيت :

« تمشــى فتحســـبها العيــو   ن على الطــريق مشـــكلة

٤ — هناك أيضا « الموسيقى » فى شعر الوصف وهى تتصـل من ناحية بموسيقى الشعر الخارجية من وزن وقافية ، ومن ناحية أخرى بالموســيقى الداخلية ، ونجاح الشــاعر يعتمد على اتخــاذه الأوزان المناسبة لشعره ، (فالشاعر عليه أن يعد لموضوعه الوزن المناسب له والذى يسلس القول عليه)(٢٣) . كما أن الوزن ايقــاع يطرب الفهم لصوابه وما يرد عليه من حسن تركيبه واعتدال أجزائه(٢٤) .

وسوف نلمس توافق الأوزان مع موضوعات الوصف فيما أتى به الشعراء حين عبروا عن أحاسيسهم فى وصفهم للبيئة المصرية ، فهم حين وصفوا المعارك والحروب مثلا اختاررا الأوزان التى يستطيعون بها أن يفيضوا فى القول ، فاتجهوا فى بعضها الى (بحر الطويل) ذلك البحر الذى يتسع لكثير من المعــانى ولذلك يكثر فى الفخر والحماسة والوصف والتاريخ(٢٥) .

ومن ذلك قول ابن عنين : —

سلوا صهوات الخيل يوم الوغى عنــا
اذا جهلت آياتنــا والقنــــا اللدنا

فمن الواضح أن بداية الأبيات تعطى توجيها لما يريده الشــاعر من حديث طويل عن أمجاد المســلمين وتاريخهم فى خوض المعــارك

---

(٢٣) عيـــار الشـــعر ابن طباطبا ص٥ .
(٢٤) المرجع السابق ص ١٥ .
(٢٥) أصول النقد الأدبى ص ٢٩٢ .

والانتصارات ، ومن الطبيعي أن هذا يحتاج الى طول نفس واستيعاب معنى .

كذلك قال فتيان الشاغوري :

ولما أتوا دمياط كالبحر طاميا   وليس له من كثرة القوم ساحل
تزيد عن الاحصاء والعد جمعهم   ألوف ألوف خيلهم والرواحل

ان هذه الأبيات ترينا كيف أن الشاعر أراد فى قصيدته أن يستوعب وصف الأحداث وأن يعطيها حقها فاتجه الى بحر الطويل ومثل ذلك ما فعله ابن سناء الملك حين أراد أن يصف داره ويعدد محاسنها ويتفاخر بما فيها من مباهج لجأ الى هذا البحر فقال :ـ (٢٦) .

نعم هذه دار النعم المعجل   تذكرنى دار النعيم المؤجل
فأرتع فى الدارين فى زمن معا   بعينى وعينى فكرتى وتخيلى
لقد قصرت من شأوها كل روضة   وقصر عن أملاكها كل أفضل
سماء نضار تحت أرض فضة   يقرع ماء الورد فيها بجدول

ولكن حين أراد على بن ظافر أن يصف شمعة فى منجنيق فى لمحة عارضة وموقف سريع استخدم بحرا قصيرا (مجزوء الرجز) فقال :ـ

وشمعة فى المنجنيق   تتلظى وتتقد
تنير فيه مثلما   ينير بالروح الجسد

---

(٢٦) ديوانه ص ٥٧١ .

ويحس البهاء زهير بالانطلاق فيختار وزنا يرتبط بمعنى الأبيات فيقول على (بحر الهزج) •

نزلنا شاطىء النيل على بسط الأزاهير
وقد أضحى لنا بالموج وجه ذو أساريئ

ان اختيار الوزن مقترن باحساس الشاعر ، ولذلك يقول د / ابراهيم أنيس [٢٧] •

ان حالة الشاعر النفسية من الفرح غيرها فى الحزن والأسى ، ونبضات قلبه حين يتملكه السرور سريعة ، ولكنها بطيئة حين يستولى عليه الهم والجزع وكل هذا جعل الباحثين يعقدون الصلة بين عاطفة الشعر وما تخيره من أوزان الشعر •

وأما من ناحية القافية وهى المكملة لموسيقى الشعر الظاهرة فقد تعددت فى أوصاف الشعراء لمصر ، وقد غلب على الشعر ما عرف بالتصيد أى اتحاد القافية فى كل أبيات القصيدة ، ولكن فى بعض الأشعار اتجه الشعراء الى نظام الأرجوزة وهى التى تكون فيها الأبيات على قافية واحدة فى كل شطر من أشطار القصيدة ، ومنها مثلا ما قاله البهاء زهير : —

وليلة كأنها يوم أغر ظلامها أشرق من ضوء الفجر
كأنها فى مقلة الدهر حور ما قصرت لو سلمت من القصر
حين أتت مرت كلمح البصر ليس لها بين النهارين أثر

---

(٢٧) موسيقى الشعر ص ١٧٥ .

وتستمر الأبيات — على طولها — على هذا الايقاع حيث نجد حرف الراء فى كل شطر من الأبيات ، ومن ذلك أيضا قول ابن سناء الملك حيث تتفق قافية كل شطر ، مع باقى الأشطار من صدر البيت وعجزه فى حرف السين . يقول [٢٨] .

وسوسن أحوى جنى الغرس ينـدى من اللمحة قبل اللمس
أوراقه فى رقة الدمقس تصبو الى تقبيلهن نفسى

وفى وصف الفرس لابن الساعاتى يتخذ القافية الموحدة فى عجز البيت وصدره فى كل أبيات القصيدة ، فيقول : —

قد اغتدى والصبح عارى المطلع بأصمع القلب حديد المسمع
مؤلل الأنياب أحوى المدمع كأنما علت بسبم منقع
يمرق من جلد الظلام الأسفع أنجد نجوم الليل نحو التهيع

ووراء هذه الموسيقى التى تعتمد على ايقاع الوزن والقافية ، موسيقى أخرى خفية تنبع من اختيار الشاعر لكلماته وما يكون بينها من تلاؤم فى الحروف والحركات [٢٩] ومهارة الشاعر تتضح فى ملاءمته بين ألفاظه ومعانيه بحيث لا يطغى جانب على جانب ، ومعنى ذلك أن الشاعر عليه أن يستخدم ألفاظه الشعرية الموحية ومجازاته التى تعقد الصلة بين الأشياء فى حذر ودقة ، وكذلك المجاز والاستعارة ، فبجانبهما وبجانب العنصر اللفظى عناصر المعانى والأفكار وكذلك عنصر الصوت حيث ينغم شعره ، ولا يقصد الموسيقى الظاهرية وحدها ، وانما نقصد الموسيقى الخفية وهى أرق من الموسيقى الظاهرية [٣٠] . (العروض والقافية) .

---

(٢٨) ديوانه : ص ٥٦٩ .
(٢٩) فى النقد الأدبى د / شوقى ضيف ص ٩٦ .
(٣٠) المرجع السابق ص ١١٥ .

وسوف نجد أن الشعراء قد لجأوا الى كثير من الأساليب والتركيبات لكى يضفوا على أشعارهم لونا من الجرس والحركة واعتمدوا فى ذلك على أساليب القول واستخدموا وسائل متعددة منها التشبيه والاستعارة والمجاز وحسن التعليل ، أرادوا من هذا اذكاء ملكة الخيال التى يعتمد الشعراء عليها فى تأليف صورهم ، « والصور الشعرية هى التشكل الفنى الذى تتخذه الألفاظ والعبارات بعد أن ينظمها الشاعر فى سياق بيانى خاص ليعبر به عن جانب من جوانب التجربة الشعرية الكاملة فى القصيدة مستخدما طاقات اللغة وامكاناتها فى الدلالة والتركيب والايقاع والحقيقة والمجاز والترادف والتضاد والمقابلة والتجانس وغيرها من وسائل التعبير الفنى [٣١] . لقد اعتمد الشعراء فى ذلك على وسائل متعددة لابراز صورهم فى اطار فنى جميل ، فاستخدموا التشبيه والاستعارة ، وكثر التشبيه فى شعر الوصف ، فنجد مثلا البهاء زهير يصف احدى الليالى المقررة ، ويختار لها من التشبيهات أحسنها فهى مرة كأنها يوم أغر لما بدا فيها من اشراق بضوء القمر ، ومرة أخرى كأنها حور فى عين الدهر ، أى أنها أحسن أيام الدهر ، فالحور يزيد العين جمالا ، يقول : —

وليلة كأنها يوم أغر ظلامها أشرق من ضوء الفجر

كأنها فى مقلة الدهر حور ما قصرت لو سلمت من القصر

وحين أراد جعفر بن محمد العلوى وصف مليح يضرب بيده « طارا » وأراد أن يصور جماله الأخاذ ، شبهه ببدر الدجى ، واختار وصفا طريفا فكان هذا البدر يلعب بالشمس .. يقول [٣٢] :

---

(٣١) الاتجاه الوجدانى فى الشعر العربى المعاصر د / عبد القادر القط ص٤٣٥ .

(٣٢) فوات الوفيات ج١ ص ١٩٩ .

غـنى بطـار طـار قلبي له بأنامـل كالأنجـم الخمـس
كـأنه والطـارفى كفـة بـدر الـدجى يلعب بالشـمس

ونلمس فى تلك الأبيات اعتماد الشـاعر على تصـوير الحركة ، فهو يبين أن ضـارب الدف ينقله في يده وبين أصـابعه في سرعة ، نحسها في معاني الأبيات ودقة التعبير فيها .

ويعتمد ابن الساعاتي أيضا على التشبيه فى بيان سرعة فرسه ، فهو مرة يجعله كالقوس ، لكنه يريد بيان شدة سرعته أكثر فيجعله كالسهم ، ويزيد فى الوصف فيجعله كالسيل ، يقول : ـ [٣٣] .

كالقوس أو كالسـهم فى التسرع لم أر بـرقا غـيره يلمـع
ينصب كالسـيل جرى فى موقع ويعتلى كالبـارق المتمع

ويصف على بن ظـافر الهلال ويجعله كالمنجل يحصـد النجوم فيقـول [٣٤] :

أما ترى الهلال يخفى أنجم الـ أفق بنـور وجهـه الوسـيم
كمنجـل من ذهب يحصـدمن روض الظـلام نرجس النجـوم

ويجعل ابن الساعاتى البدر كالخريدة وهو من التشبيه المقلوب وهو جعل المشبه مشبها به بادعـاء أن وجه الشـبه فيه أظهر وأقوى فيقـول [٣٥] :

فكأنه خـلل السـحاب خـريدة حسـناء تحجب وجهـا وتطلـع

---

(٣٣) ديـوانه جـ٢ ص ١٢٢ .
(٣٤) بـدائع البدائه ص ١٨٨ .
(٣٥) البلاغة العربية تأصيل وتجديد د . مصطفى الجوينى ص ٩٠ .

وحين اتسعت الصورة أمام الشاعر وتعددت ملامحها ، لم يملك نفسه من بيان تلك الملامح فقد رأى الصورة أمامه تحوى مشهد الليل والبدر ونجم الثريا ونجم السهيل ، والسها ، فكان عليه أن يتدبر ذلك ويصف ما يناسبه ، ووجد فى التشبيه بغيته ، فقد شبه ظلمة الليل بشعر أسود ، لاح منه اشراق البدر كأنه جبين مضىء ، وأضفى على نجم الثريا صورة الغيور الذى يرقبه فى حسد . وشبه نجم السهيل بأنه فؤاد يخفق ، وجعل نجم السها كأنه سر فى جوف الليل يقول الخطير بن مماتى : — [٣٦] .

كأن ظلام الليل اذ لاح بدره دجوجى شعر لاح منه جبين

كأن الثريا ترقب البدر غيرة فقد هجرت منها المنام عيون

كأن سهيلا فى مطالع أفقه فؤاد مروع خامرته ظنون

كأن السها تبدو أوانا وتجتلى لدى الليل سر فى حشاه مصون

وقد مالت الجوزاء حتى كأنها كمى بخطى السماك طعين .

وهناك أيضا من أساليب الصنعة والزخرف التى تميز به الشعر فى تلك الفترة ووضحت صورتها فى شعر الوصف ما نجده من ألوان البديع كالسجع والجناس وحسن التعليل ، فنجد من ذلك حسن التعليل الذى وصف به ابن مماتى وسادة عليها نقوش تصور روضة تتحلى بها هذه الوسادة ، وأراد أن يعطينا الاحساس بأنها روضة حقيقية فعلل بأن الأنفاس الناشئة عن تنفس صاحبها هو النسيم الذى تتبعث رائحته من الروض .. وأن العرق الذى تصبب من النائم عليها هو جداول تترقرق مياهها فيه .. يقول : — [٣٧] .

---

(٣٦) الخريدة حا ص ١١٥ قسم شعراء مصر .

(٣٧) الخريدة قسم شعراء مصر حا ص ٦٢ .

وسـادة لمحت عيـنى بدارهـم وسـادة رقمت أمنـا من الأرق
أحسن بها روضة ليس النسيم بها ولا المياه سوى الأنفاس والعرق

ومن ذلك أيضا ما يراه ابن الساعاتى حين يغلل تدفق المياه عند كسر الخليج بأنها دموع جرت وانحدرت وذلك لأن كسر الخليج كان فى رؤية الشاعر كأنه كسر قلب تأثرت له عيون صاحبه : —[٣٨] .

ان يوم الخليـج يوم من الحسـن بديـع المـرئى والمسـموع
كسـر جسـره هنـاك فحـاكى كسـر قلب يتلـوه فض دمـوع

ومن ألوان الجناس قول ابن سناء الملك : —[٣٩] .

وكم طائر من رأسـه المـاء طائر على أنـه فى وكره كالمكبـل

فكلمة (طائر) الأولى فى صدر البيت تعنى طائرا من الطيور : وأما الثانية فهى من (تطاير الماء) .

وكذلك قول ابن قادوس الدمياطى : —[٤٠] .

أرى سـرج الجزيرة من بعيـد كـأحداق تغـازل فى المنـازل
كأن مجـرة الجوزا أحـاطت وأثبتـت المنـازل فى المنـازل .

ففى البيت الثانى « المنازل » الأولى فى عجز البيت مقصود بهـا منازل القمر والثانية قصد بها (البيوت أو الديار) .

---

(٣٨) الخطط حـ٢ ص ١٤٤ .

(٣٩) ديوانه ص ٥٧١ .

(٤٠) الخطط حـ٢ ص ١٨٣ .

وأما أبيات ابن الساعاتى [٤١] :

سقى الله بالاسكندرية منزلا   لبست به ثوب النوى معلم الردن
فباطنها خال من الشوب والأذى   وظاهرها حال بديباجة الحسن .

فنجد الطباق بين (باطنها) ، (ظاهرها) ونجد الجناس الناقص بين (خال) ، (حال) .

هذه نماذج وصور تعطى ملمحا لاعتماد الشعراء على الموسيقى الداخلية التى تتعاون مع الموسيقى المتمثلة فى الوزن والقافية كى تعطى الشعر — لا سيما الوصف — تدفقا ورواء .

— ومن الملاحظ أن الشعراء فى وصفهم لمصر فى تلك الفترة ظلوا متأثرين بالتراث القديم رغم ما لمسناه عند البعض من الاتجاه الى الأسلوب الذى يميل الى العامية أو الشعبية ، (ومهما يوغل الشعراء فى التجديد فان الشعر يظل مرتبطا على نحو ما ببعض المظاهر الفنية فى تراث الشعر العربى القديم ، وقد تزهو ألوانه أو تشحب لكن طرفه الأخير يبقى مرتبطا ببدايته الأولى ، فنجد بعض السمات التقليدية ترجع الى العصر العباسى أحيانا أو الى العصر الأموى أو الجاهلى أحيانا أخرى حتى أننا نجد أن الابل والمطايا والصحراء مصدر لكثير من التشبيهات والمجازات والصورة [٤٢] .

ومن أمثلة ذلك ما نراه عند ابن النبيه فى تصوير حنينه الى مصر ، اذ ترد فى أبياته الألفاظ القديمة المرتبطة بتقاليد الشعر فى عصوره المتقدمة من حديث عن الأظعان ودعاء بالسقيا اذ يقول : —

---

(٤١) ديوانه حـ٢ ص ٨ .

(٤٢) الاتجاه الوجدانى فى الشعر العربى المعاصر د / عبد القادر القط ص ٤٣٥ .

أنا والأظمـــان من شـــوق معـــنـــّـــت نخشوكم أعضـــاقينا قد لمحويته
ان أرضـــــا أنتـــم سـتـشكانها غنيت من أن تتحولوا بعجبقيت

وحين يقول ابن الساعاتى واصفا البدر تحت الغمامة كأنــه حسناء تتوارى وراء السحاب ثم تبدو للعيان يذكرنا بما قاله أبو الفتح كشاجم من شعراء الشام فى عهد سيف الدولة حين يصف الشمس وأنها حين تختفى وراء الغمام فكأنها حسناء متقنعة فى النقاب وأنها تتوارى من ذنب جنته •• يقول ابن الساعاتى

ولقـــد رأيت البـــدر تحت غمـــامة يخفى ويبـــدو حيثمـــا يتقشـــع
فكـــأنه خلل الســـــحاب خـــريدة حســـناء تحجب وجهـــا وتطلع •

وأما كشاجم فيقول : — (٤٣) •

شمس الضحى فى الغمام مستترة أم دميـــة فى النقـــاب معتجـــرة
جنت فجـــاءت مجىء مذنبـــــة اليـــك ممـــا جنتـــه متعـــــذرة •

وفى وصف ابن سناء الملك لما كان من صور رسمت على جدران منظرته فوق شاطىء النيل ، الذى نراه فيه يتكلم عن الجنود التى يتوالى مرورها وهم يرتدون الملابس الموشاة بألوان زاهيـــة كأنهم فى يوم عيد ، ويقول : —

لقد قصرت من شأوها كل روضة وقصر عن أملاكهـــا كل أفضـــل
أعيـــد ملوك الأرض فيها ليعلموا بـــأن الذى شـــادوه غير مكمل
يقابل كسرى قيصــــرا وكلاهما يقلب طـــرف البـــاهت المتـــأمل

---

(٤٣) ديوان كشاجم ص ١٢٣ •

وقد عرضت فيها الجنود فجحفل يمـر على آثـاره ألف جحفـل
كـأنهم فى يوم عيـد فقمصـهم من الوشى لاتحصى الحديد المسربل

ان هذه الصورة تذكرنا بقول البحترى حين وصف ايوان كسرى فى المدائن من بلاد فارس .. وراعه ما رآه عليه من رسوم تمثـل معركة حربية بين الروم والفرس ، حيث تصور الرسوم ملك الفرس أنو شروان يقود الجيوش فى ملابسهم زاهية الألوان ، وتبدو الحركة واضحة فى صورة عراك المحاربين واستخدامهم لأدوات القتـال .. وينتابه احساس بأن هذا الجيش وهذا الجمع احياء وليس برسـم لدقته ، ولكنه يقطع شـكه باليقين حين يتلمسهم بيده فيدرك الحقيقة، فيقول فى أبياته : — (٤٤) .

فـاذا مـا رأيت صـورة أنطـا كيـة أرتعت بين روم وفـرس
والمنـايا مواثـل وأنو شـر وان يزجى الصفوف تحت الدرفس
فى اخضرار من اللباس على أصـ فـر يختـال فى صبغة ورس
وعـراك الرجـال بـين يـديه فى خفـوت منه واغماض جرس
من مشيح يهـوى بعـامل رمح ومليـح مـن السـنان بترس
تصـف العين أنهم جـد أحيـا ء لهـم بينهم اشـارة خـرس
يعتلى فيهـم ارتيـابى حتـى تتقـراهم يـداى بلمس

وهنا نقول ان الأدب ذو طبيعة هامة تختص به وتستمر معه على طول الأزمان ، انها طبيعة التأثر والتأثير والتواصـل مع القـديم ، والالتحام مع الجديد .. فالأدب سلسلة متصلة ممتدة االجذور لا تنبت منها الفروع .

---

(٤٤) ديوان البحترى جـ١ ص ١٩٠ .

خـــاتمـــة

والآن أريد أن أعطي صورة سريعة لموضوع هذا البحث الذى جعلت مصر ميدانا له ، وما كان من وصف شعراء العصر الأيوبى لجوانب الحياة المختلفة فيها •

ومن الطبيعى أن البيئة العامة لها دور كبير وتأثيرها على النتاج الأدبى واضح وملموس ، فهو يعد مرآة مصقولة صافية تنعكس عليها صورة المجتمع فكان لزاما أن أبدأ **الفصل الأول** من هذا البحث فى توضيح صورة البيئة المصرية فى هذا العصر من الناحية السياسية والاجتماعية والفكرية ، فأوضحت أن الحياة السياسية كانت حافلة بالأحداث الداخلية اذ كانت هذه الفترة حاسمة من حيث القضاء على دولة تزول هى الدولة الفاطمية ، ومولد دولة جديدة هى الدولة الأيوبية التى امتد عمرها فى مصر احدى وثمانين سنة وبضعة أشهر • وكان لتلك الأحداث أثرها على الشعراء والكتاب حيث كان لكل من الدولتين من يعارضها أو يؤيدها ، وكان نتاج ذلك واضحا فى شعر الشعراء •

كما كانت الحياة السياسية أيضا حافلة بأحداث خارجية وفدت على مصر من بلاد الفرنج وهو ما سمى بالحروب الصليبية وما نشأ عنها من اعتداءات متكررة على البلاد المصرية من فترة الى أخرى حتى قيض الله من أنهى وجودهم فيها وأرتفعت راية الاسلام عالية على أنحاء مصر • وانتهى هذا الفصل بتصوير الحكم الأيوبى فى سنة ٦٤٨ هـ •

كما أوضحت فى الحديث عن الحياة الاجتماعية انها اشتملت على جوانب متعددة •• تصور البيئة المصرية فى غناها وترفها من جانب ،

وفقرها وبؤسها من جانب آخر فأوضحت الجانب الحضارى المتمثل فى مظاهر البناء والعمران كبناء القلعة والخلجان والقناطر ووجود الجزر ومقياس النيل ، وتحدثت عن صور المدن الشهيرة فى مصر وجمال عمارتها كمدينة الاسكندرية ومنارتها ومدينة أسيوط ومنفلوط وغير ذلك، والى جانب هذه الحياة المترفة كان فى المقابل حياة تأثرت بانخفاض النيل ونكبات الحروب وقسوة تقدير الضرائب .

ثم كان الحديث عن الحياة الفكرية والثقافية ، ووضح فيها أن مصر فى تلك الفترة زهت وازدهرت فيها الحياة الفكرية والثقافية بكل ملامحها ، وازداد نشاط العلماء والأدباء بصورة كبيرة ، وأوضحت عوامل ذلك وأسبابه ، وتكلمت عن المجالس الأدبية التى ضمت أهل العلم والفكر فى مجالاتهم المتعددة ، وان من ملامح تلك النهضة كثرة الأدباء الذين ملكوا ناصيتى الأدب شعره ونثره .

وكان ضروريا ابراز دور الشعراء فى تصوير ووصف جوانب البيئة المصرية ، فكان **الفصل الثانى** عن وصف المعارك والحروب وأوضحت ما كان من وصف الشعراء لما دار من صراعات داخلية بين الفاطميين والأيوبيين من ناحية ، وبين الأيوبيين من أمراء وسلاطين بعضهم البعض من ناحية أخرى . كما أن شعراء العصر الأيوبى قاموا بدور كبير فى تصوير ووصف المعارك مع الصليبيين وكان شعرهم سلاحا قويا توازى مع الرماح والنبال فى مواجهة العدو ، وكم كان براعة منهم أن يدخلوا الى أغوار النفس فصوروا الحزن منها والسار ووصفوا الأحداث كما رأوها .. ويهمنا ابراز أن هذه الحروب التى كانت بين المسلمين والمسيحيين لم تكن تهم المصريين وحدهم فهذه الحروب لم تكن تخص أمة بمفردها وانما كانت تمس العقيدة ، لذا فقد تدافع الشعراء فى أنحاء الأمة الاسلامية يشيدون بجهد مصر ودورها فى مواجهة هذا العدو والانتصار عليه .

والفصل الثالث : — كان عن وصف المظاهر الاجتماعية والحضارية فقد وصف الشعراء المباني والمدن كالاسكندرية والمحلة والمنازة والخلجان والسواقى والقصور والمناظر .. كذلك وصفوا ملمحا اجتماعيا وهو ما عرف بكسر الخليج أو فتح الخليج .. ووصفوا ترابط المجتمع المصرى وحب أهله للتصادق واستدعاء الصحب ، وصور الشعراء المجالس للاهية والمجالس الأدبية ، كما أبرزوا الجانب الآخر من الحياة الاجتماعية المتمثل فى الحياة القاسية التى عاشها جانب من المصريين .

والفصل الرابع : — فى وصف الطبيعة ، فقد أبان الشعراء عما حبا به الله سبحانه وتعالى مصر من ملامح الجمال ، فوصفوا الرياض والأزهار والثمار ، كذلك الطبيعة الحية ، ووصفوا الهلال والبدر .

وهكذا عاش الشعراء فى أعماق مصر الأيوبية واستطاعوا أن يبرزوا ما فيها من ملامح وخصائص ، واستطاعوا أن يجعلوها أمام الأعين واضحة بتاريخها ومجتمعها وطبيعتها .

والفصل الخامس : — عن دراسة فنية لشعر الوصف .. وأبرزها أن الشعراء فى العصر الأيوبى استطاعوا أن يعطوا صورة صادقة للبيئة المصرية ، فكان شعرهم مرآة صافية انعكست عليها كل ملامح المجتمع من الناحية السياسية والاجتماعية والطبيعية ، واتضحت شخصية مصر فى هذا الفن من فنون الشعر وهو فن الوصف ، كما استخدموا الصور والأساليب والموسيقى التى تتناسب مع موضوعات الوصف .. كذلك جاء شعر الوصف يحمل عاطفة وصدقا فنيا ، وما ذاك الا لأن الشعراء

وصفوا مصر بعاطفة قوية هى عاطفة الحب الذى تحمله قلوبهم لهــذا الوطن الكبير •

وأخيرا أرجو أن أكون قد وفقت فى عرض وصف مصر كما صورها شعراء العصر الأيوبى ، وأن أكون قد وفيت هذا العمل حقه •

والله من وراء القصد وهو نعم المولى ونعم النصير •

المصادر والمراجع

— القرآن الكريم :

— الأدب العربى وتاريخه :

د. أحمد ابراهيم الشعراوى ، دار الطباعة المحمدية .

— الأدب فى العصر الأيوبى :

د. محمد زغلول سلام ، دار المعارف — مصر ١٩٨٣ .

— الأدب المصرى من قيام الدولة الأيوبية الى مجىء الحملة الفرنسية :

د. عبد اللطيف حمزة ، مكتبة النهضة المصرية .

— الأعلام : خير الدين الزركلى ، الطبعة الثالثة .

— ابن دقيق العيد .. حياته وديوانه :

على صافى حسن ، دار المعارف — مصر ١٩٦٠ .

— ابن سناء الملك حياته وشعره :

محمد ابراهيم نصر ، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر ١٩٦٧ .

— الاتجاه الوجدانى فى الشعر العربى المعاصر :

د. عبد القادر القط ، دار النهضة العربية — بيروت ١٩٧٨ .

— الأسس الجمالية فى النقد العربى :

د. عز الدين اسماعيل ، دار الفكر العربى الطبعة الثانية ١٩٧٤ .

— أسس النقد الأدبى عند العرب :

د. أحمد أحمد بدوى ، دار نهضة مصر ١٩٧٩ .

— الأصول الفنية للأدب عند العرب :

د. عبد الحميد حسن ، الطبعة الثانية ١٩٦٤ .

— أصول النقد الأدبى : د. أحمد الشايب ، ١٩٦٠ .

— **بدائع البداية :**

علی بن ظافر الازدی ، تحقیق محمد ابو الفضل ابراهیم ١٩٧٠ .

— **البداية والنهاية :** الحافظ ابن كثير ، الطبعة الأولى ١٩٦٦ .

— **البهاء زهــير :**

د. عبد الفتاح شلبی ، دار المعارف — مصر .

— **البــلاغة العربية تأصيل وتجديد :**

د. مصطفى الجوينى ، منشأة المعارف — الاسكندرية ١٩٨٥ .

— **بيئات الأدب العربى :**

د. يوسف حسن نوفل ، دار المريخ — الرياض ١٩٨٤ .

— **تاريخ الأدب العربى (عصر الدول والامارات) مصر والشام :**

د. شوقى ضيف ، دار المعارف بمصر .

— **تاريخ الأدب العربى :** حنا الفاخورى ، بيروت — لبنان المطبعة البوليسية.

— **الجامع المختصر فى عنوان التاريخ وعيون السير :**

ابن الساعى ، ابو طالب على بن انجب تاج الدين ، بدون تاريخ

— **الحركة الفكرية فى مصر فى العصرين الأيوبى والمملوكى الأول :**

د. عبد اللطيف حمزة ، دار الفكر العربى ، الطبعة الثامنة ١٩٦٨ .

— **الحروب الصليبية وأثرها فى الأدب العربى بمصر والشام :**

محمد سيد كيلانى ، الطبعة الثانية ١٩٨٤ .

— **حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة :**

السيوطى ، مطبعة ادارة الوطن ١٢٩٩ هـ .

— **الحياة الأدبية فى عصر الحروب الصليبية بمصر والشام :**

د. أحمد أحمد بدوى ، الطبعة الثانية ، دار نهضة مصر .

— الخطط المقريزية :

تقى الدين بن أبى العبـاس احمـد بن عـلى المقريزى ، الطبعة الثـانية ، ١٩٨٧

— خريدة القصر (قسم شعراء مصر) :

العماد الأصفهانى الكاتب ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥١ .

— دراسات فنية فى الأدب العربى :

د. عبد الكريم اليافى ، مطبعة دار الحياة ١٩٧٢ .

— دراسات فى تاريخ الحروب الصليبية :

د. عفاف صبرة ، دار الكتاب الجامعى ١٩٨٥ .

— ديوان ابن الساعاتى : بيروت المطبعة الأمريكية ١٩٣٨ .

— ديوان ابن سناء الملك :

تحقيق محمد ابراهيم نصر ، دار الكاتب العربى القاهرة ١٩٦٩ .

— ديوان ابن عنين : تحقيق خليل مردم ، دار صادر بيروت .

— ديوان ابن النبيه : الطبعـة الأولى .

— ديوان البحترى : دار صادر بيروت .

— ديوان البهاء زهير : دار صادر بيروت ١٩٦٤ .

— ديوان عرقلة الكلبى :

تحقيق أحمد الجندى ، دار الحياة دمشق ١٩٧٠ .

— ديوان كشاجم : بيروت ١٣١٣ .

— الروضتين فى أخبار الدولتين : أبو شامة المقدسى .

— رحلة ابن جبير : دار صادر ، بيروت ١٩٦٤ .

— السلوك لمعرفة دول الملوك :

تقى الدين أحمد بن على المقريزى ، دار الكتب ١٩٣٤ .

— **شذرات الذهب فى أخبار من ذهب :**
ابن العماد الحنبلى ، دار الآفاق الجديدة بيروت .

— **الشخصية المصرية فى الأدبين الفاطمى والأيوبى :**
د. أحمد سيد محمد ، دار المعارف ١٩٧٩ .

— **الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصـور :**
د. شوقى ضيف ، دار المعارف ١٩٧٩ .

— **صبح الأعشى فى صناعة الانشا القلقشندى :**
القـاهرة — مطبعة بولاق ١٩١٣ . ١٩١٩ .

— **الطالع السـعيد :** الأدفوى ، مطبعة الجمالية . القاهرة ١٣٣٣ .

— **العمدة فى صناعة الشعر ونقده :**
أبو الحسن ابن رشيق القيروانى ، الطبعة الثانية ١٩٦٣ .

— **الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الاسلامية :**
ابن الطقطقـا — دار بيروت ١٩٦٦ .

— **الفن ومذاهبه فى الشعر العربى :** د. شوقى ضيف ، دار المعارف بمصر

— **فوات الوفيات :** ابن شاكر الكتبى ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥١ .

— **فوات الوفيات والذيل عليها :** دار صادر بيروت .

— **فى النقـد الأدبى :** د. شوقى ضيف ، دار المعارف مصر .

— **الكامل فى التاريخ :**
ابن الاثير ابو الحسن بن على ابى الكرم ، دار الكتاب العربى بيروت .

— **المثل السائر فى ادب الكاتب والشاعر :** ضياء الدين ابن الأثير ١٩٥٩ .

— **معجم المؤلفين :**
تراجم مصنفى اللغة العربية ، عمر رضـا كحالة — دار احياء التراث العربى — بيروت ...

— **موسيقى الشعر** : ابراهيم انيس ، الطبعة الثالثة ١٩٦٥ .

— **مفرج الكروب فى اخبار بنى أيوب** :

جمال الدين سالم واصل تحقيق د. جمال الدين الشيال ، دار القلم.

— **النجوم الزاهرة** :

جمال الدين بن تغرى بردى ، دار الكتب ١٩٣٦ .

— **نوادر المخطوطات** :

تحقيق محمد عبد السلام هارون ، الطبعة الثنية ١٩٧٢ — مطبعة البابى الحلبى — مصر — المجموعة الأولى « الرسالة المصرية » .

— **النيل فى الأدب المصرى** : د. نعمات أحمد فؤاد ، دار المعارف — مصر ١٩٦٢ .

— **وفيات الأعيان** : : ابن خلكان — تحقيق احسان عباس ، دار صادر بيروت ١٩٧٨ .

القواميس والمعاجم :

— **القاموس المحيط** :

مجد الدين الفيروز بادى ، المكتبة التجارية مصر .

— **لسان العرب** :

جمال الدين محمد بن منظور ، دار الكتب .

الفهـــــرس

الصفحة

الصفحة

مطبعة الجبلاوى
٢٠٢ شارع الترعة البولاقية ـ شبرا مصر

رقم الايداع بدار الكتب ١١٠١٩ / ١٩٩٣
I. S. B. N — 977 — 00 — 6289 — 8